التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي ـ مملكة البحرين SDPA 499 العدد 224 السنة 24 ـ أكتوبر 2026

التقدمي يُودع المناضل سيد جعفر الوداعي

موقفنا

مناضلون أشدّاء يرحلون عنا

ثمة رحيل لا يكون غياباً لشخص فحسب، وإنما غياباً لجزء من الذاكرة الوطنية. وهذا هو بعض ما نشعر به ونحن نودّع، واحداً بعد آخر، عدداً من المناضلين الذين أمضوا سنوات طويلة في صفوف الحركة الوطنية البحرينية، وفي العمل النقابي والاجتماعي، وكان لهم حضورهم في مسيرة المنبر التقدمي، وقبل ذلك في جبهة التحرير الوطني، وكان آخرهم المناضلان محمد حسين نصر الله والسيد جعفر الوداعي، وغيرهما من الرفاق الذين سبقوهم في الرحيل خلال السنوات الماضية.

ينتمي هؤلاء المناضلون إلى جيل لم يكن الطريق أمامه معبّداً، عرف معنى أن يحمل الإنسان فكرة يؤمن بها في ظروف سياسية واجتماعية شاقة، وأن يدفع من وقته وجهده وحياته الخاصة ثمنًا لموقف اختاره عن قناعة. ومن مواقع العمل الوطني والنقابي والاجتماعي، وفي الأحياء والقرى وأماكن العمل، تشكلت تجاربهم وتعمقت صلاتهم بالناس، حتى أصبح النضال بالنسبة إليهم جزءًا من معنى الحياة نفسها، لا حضورًا مرتبطًا بموسم سياسي.

استذكار هؤلاء الراحلين استعادة لأسماء غابت عنا، ولفصول من تاريخ البحرين الحديث؛ تاريخ الحركة الوطنية، والحركة العمالية والنقابية، والنضال من أجل مجتمع أكثر عدلاً وكرامة، وهي قضايا ارتبطت بها جبهة التحرير الوطني ومن بعدها المنبر التقدمي، ومجمل التيارات الوطنية المناضلة في البحرين.

لكل واحد من هؤلاء المناضلين سيرته، التي تتشابه في أشياء وتختلف في أشياء أخرى مع سواه، فبينهم مناضلون عماليون، ونشطاء سياسيون، وقادة في مؤسسات المجتمع المدني، ومثقفون، وأصحاب تجارب سياسية وإنسانية امتدت عقوداً، يجمعهم أنهم لم يعيشوا بعيداً عن قضايا الناس، وأن مواقفهم لم تكن منفصلة عن واقع المجتمع الذي عاشوا فيه، ولهذا يصبح رحيلهم موجعاً لرفاقهم وأسرهم وأصدقائهم.

ومع توالي هذه الرحيلات، لا يخسر المنبر التقدمي أفراداً أعزاء وحسب، بل يخسر شيئاً من الذاكرة التي حملوها معهم. فالتجارب لا تنتقل كلها في الكتب والوثائق؛ بعضُها يسكن في الذاكرة الشخصية، وفي الحكايات التي يرويها أصحابها، وفي تفاصيل المواقف التي لا يعرفها إلا من عاشها، ولذا فإن الكتابة عن الراحلين محاولة لحفظ ما يمكن حفظه من تلك الذاكرة، وإنصاف لجيل كان له نصيبه من الحلم والتعب والتضحيات، وأسهم، كلٌّ من موقعه، في صياغة جانب من تاريخنا الوطني.

التقدمي

التقـــدمـــي ينعـــى المنـــاضـــل الـــوطنـــي والعمـــالـــي جعفـــر الـــوداعـــي «أبـــو بـاســل»

- ستة عقود من النضال الوطني والعمالي دفاعاً عن قضايا العمال والكادحين
- شارك في إضراب عمال الكهرباء عام 1968 واعتُقل في جزيرة جده عام 1975
- من الرعيل الأول للحركة الوطنية ومؤسسي المنبر التقدمي عام 2001
- رفيق وفيّ لفكره وتنظيمه وحضور إنساني راسخ في ذاكرة رفاقه

نعى المنبر التقدمي في البحرين المناضل الوطني والعمالي جعفر الوداعي، المعروف بـ«أبو باسل»، الذي توفي يوم الأحد الموافق 30 أغسطس 2026، بعد مسيرة نضالية امتدت لنحو ستة عقود.

وقال التقدمي في بيان له إن الراحل ظل ثابتاً على مبادئه، وفياً لقضايا العمال والكادحين، ومنحازاً إلى قيم العدالة الاجتماعية والتقدم، مشيراً إلى أن رحيله يمثل خسارة للحركة الوطنية والعمالية البحرينية.

وأوضح البيان أن أبو باسل بدأ مسيرته السياسية مبكراً بانضمامه إلى جبهة التحرير الوطني البحرانية عام 1967، وكان من أبرز محطاتها مشاركته الفاعلة في إضراب عمال الكهرباء بمحطة التشغيل في أم الحصم عام 1968، وهو أحد الإضرابات البارزة في تاريخ الحركة العمالية البحرينية آنذاك.

وأشار إلى أنه كان ضمن الوفد العمالي الذي حمل مطالب العمال المضربين والتقى المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، حاكم البحرين آنذاك، وقد دفع ثمن موقفه باعتقاله لعدة أشهر وفصله من عمله في دائرة الكهرباء، دون أن يتراجع عن التزامه بقضايا الطبقة العاملة.

وبعد استقلال البحرين في 14 أغسطس 1971، واصل أبو باسل نشاطه في صفوف الحركة العمالية والوطنية، وشارك في المسيرات والإضرابات المطالبة بحق العمال في التنظيم وتأسيس النقابات. وفي 23 أغسطس 1975، اعتُقل مع عدد من كوادر الحركة الوطنية، وقضى فترة اعتقال في جزيرة جدة حتى الإفراج عنه في ديسمبر من العام نفسه.

ولفت البيان إلى دوره في نشر الفكر الاشتراكي والوعي الوطني في قريته باربار، وإلى كونه من الرعيل الأول الذي حمل هذه الأفكار ودافع عنها. ومع انطلاق مرحلة العمل السياسي العلني مطلع الألفية، كان أبو باسل مع رفاقه من مؤسسي جمعية المنبر التقدمي عام 2001، وواصل حضوره في لجانه وفعالياته وأنشطته، ولا سيما فعاليات الأول من مايو، عيد العمال العالمي.

وقال المنبر التقدمي إنه وهو يودع أحد رفاقه الأوفياء، لا يستذكر في أبي باسل تاريخ الاعتقالات والسجون وحده، وإنما يستذكر قبل ذلك الإنسان؛ «الرفيق البسيط، الوفي، الذي كان حضوره بين رفاقه جزءاً مألوفاً من حياة التقدمي، بضحكته وابتسامته وتفاؤله».

وتقدم المنبر التقدمي بخالص العزاء وصادق المواساة إلى زوجة الفقيد وأبنائه وبناته، وإلى عائلة الوداعي الكريمة، وإلى جميع أهله ورفاقه وأصدقائه ومحبيه، مؤكداً أن سيرته ستبقى بين رفاقه، وأن اسمه سيظل محفوراً في ذاكرة المنبر التقدمي والحركة الوطنية والعمالية البحرينية.

التقدمي: السلام في المنطقة يبدأ بالحوار ويحمي حقوق الشعوب

بمناسبة اليوم العالمي للسلام، الموافق 21 سبتمبر، جدد المنبر التقدمي تمسكه بقيم السلام والتضامن بين الشعوب، ورفضه الحروب واستخدام القوة لحسم النزاعات، مؤكداً أن السلام الحقيقي يقوم على العدالة واحترام سيادة الدول وحقوق الشعوب والقانون الدولي.

وحذر التقدمي، في بيان بهذه المناسبة، من تداعيات اتساع الحروب والمواجهات العسكرية في الشرق الأوسط، وما تسببه من خسائر بشرية ودمار واستنزاف للموارد، مؤكداً رفضه للاعتداءات الإيرانية التي تطال مملكة البحرين ودول الخليج والمنشآت والأهداف المدنية، وتمسكه بحق دول المنطقة وشعوبها في الأمن والسيادة والاستقرار.

ودعا إلى العودة إلى طاولة المفاوضات وتفعيل الجهود الدبلوماسية للتوصل إلى تسويات تحفظ أمن دول المنطقة ومصالح شعوبها، مؤكداً ضرورة أن تكون دول مجلس التعاون طرفاً فاعلاً في أي ترتيبات تتعلق بأمن الخليج ومستقبله.

كما دعا إلى ضمان أمن وحرية الملاحة المدنية والتجارية، محذراً من أن تداعيات الصراعات وارتفاع الأسعار وتعطل سلاسل الإمداد تقع بصورة أكبر على العمال والفئات الفقيرة ومحدودة الدخل.

وفي الشأن الفلسطيني، أكد التقدمي أن السلام العادل والدائم لا يمكن أن يتحقق من دون إنهاء الاحتلال ووقف الاعتداءات على المدنيين وتمكين الشعب الفلسطيني من حقه في تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة وفق القانون الدولي.

وشدد التقدمي في ختام بيانه على أن السلام ليس قضية سياسية فحسب، بل قضية اجتماعية وإنسانية أيضاً، مؤكداً أن كلفة الحروب والأزمات يجب ألا يتحملها المواطنون عبر المزيد من الرسوم أو تقليص الخدمات والمكتسبات.

الحرف واللون والذاكرة في أمسية مع د. سيما حقيقي

استضاف ملتقى الأحد باللجنة الثقافية في التقدمي الدكتورة سيما حقيقي في أمسية ثقافية بعنوان "حين يبوح الحرف... ويكمل اللون الحكاية" أدارتها منار السماك، وتناولت تجربتها في الكتابة والشعر والفن التشكيلي، وعلاقتها بالذاكرة والمكان.

استهلت الأمسية بالحديث عن البدايات الأولى للكتابة والرسم، وما حملته الطفولة من ملامح مبكرة للتجربة الإبداعية. واستعاد الحوار ما كانت تكتبه في سنواتها الأولى، وبدايات حضور الرسم واللون في حياتها، مع عرض صور رافقت هذه المرحلة وأضاءت جوانب من مسيرتها.

وانتقل اللقاء إلى سنوات التوقف عن الكتابة والرسم، وما صاحبها من صمت وابتعاد، ثم العودة إلى المجال الإبداعي بعد فترة طويلة وناقش الحوار أثر الزمن والتجربة في هذه العودة، وما طرأ على رؤيتها وأساليب تعبيرها.

وفي المحور الأدبي، تناولت د. سيما أثر الأستاذ الراحل علي عبدالله خليفة في مسيرتها مع الكلمة، ثم تحدثت عن لحظة الإبداع ومصادرها، وكيف تتحول الفكرة والحالة الشعورية إلى نص يتواصل مع المتلقي وتخللت الحديث قراءات لقصائد (ذات مساء) و(حافية بالكعب العالي) و(أمضي) التي قدمت نماذج من تجربتها الشعرية وتنوع موضوعاتها.

ومن الشعر انتقلت الأمسية إلى تجربة الشمع، التي بدأت من علاقتها بالشمعة، ثم تطورت عبر مبادرة شمعة أمل ذات البعدين الإنساني والبيئي، وصولاً إلى استخدام الشمع الخام في العمل التشكيلي وتناول الحوار أسباب اختيار هذه الخامة وإمكاناتها الفنية، وما تضيفه إلى اللوحة من ملمس وطبقات وتكوينات بصرية.

وعُرضت مجموعة مختارة من الأعمال الفنية، إلى جانب فيديو بتقنية التسارع الزمني وثّق مراحل تنفيذ اللوحات، الأمر الذي أتاح للحضور متابعة التحولات التي تمر بها اللوحة قبل اكتمالها ومن هنا دار الحديث حول اللون، واختياراته وعلاقته بالحالة الشعورية والدلالة التي يحملها العمل وجاءت قصيدة شفرة الضوء في هذا السياق لتجمع بين مفردات الضوء والشمع واللون والحرف.

وتناول محور لاحق العلاقة بين الكاتبة والفنانة داخل التجربة، وما إذا كان الحرف واللون صوتاً واحداً بلغتين مختلفتين، ثم قُدمت قصيدة حين تكتبني القصائد وأتيح بعدها المجال أمام الحضور لطرح أسئلتهم ومداخلاتهم حول التجربة.

وفي ختام الأمسية، اتسع الحوار ليشمل الذاكرة العائلية وصلتها بتاريخ البحرين، وما تمثله الجذور من حضور في التجربة الإبداعية. وجاءت قصيدة بكل نبضي... هنا وطن خاتمة للمسار، مستحضرة الوطن والبحر والمنامة والذاكرة، ومتصلة بفكرة الأمسية التي جمعت بين التعبير بالكلمة والرؤية باللون.

التقدمي: المساواة في الأجر ركيزة للعدالة الاجتماعية وكرامة العمل

أكد المنبر التقدمي أن ضمان الأجر العادل والمتساوي عن العمل ذي القيمة المتساوية يمثل أحد المرتكزات الأساسية للعدالة الاجتماعية والمساواة وصون كرامة العمل والعاملين، مشدداً على أن القضية لا تقتصر على المرأة وحدها، بل ترتبط بعدالة سوق العمل بصورة عامة.

جاء ذلك في بيان لقطاع المرأة بالمنبر التقدمي بمناسبة اليوم الدولي للمساواة في الأجر، الذي يصادف 18 سبتمبر من كل عام، حيث أشار إلى أن فجوة الأجور بين النساء والرجال لا تزال تمثل تحدياً يرتبط بعوامل عدة، من بينها تفاوت فرص العمل والترقي، وتركز النساء في بعض الوظائف والقطاعات الأقل أجراً، وعدم التكافؤ في تحمل أعباء الرعاية الأسرية.

وقال التقدمي إن تحقيق المساواة الفعلية في الأجور يتطلب معالجة هذه العوامل بصورة متكاملة، وعدم الاكتفاء بالمساواة القانونية، مشيراً إلى أهمية البناء على ما تتضمنه التشريعات البحرينية من حظر للتمييز في الأجور بين العمال والعاملات في العمل ذي القيمة المتساوية.

ودعا إلى تعزيز آليات تطبيق التشريعات والرقابة عليها بما يضمن انعكاسها بصورة فعلية على سوق العمل، لاسيما في القطاع الخاص، إلى جانب تعزيز الشفافية في معايير تحديد الأجور والمزايا والترقيات.

وأكد المنبر أن المساواة في الأجر ترتبط بمنظومة أشمل من الحقوق في سوق العمل، تشمل العمل اللائق والأجر المنصف والأمان الوظيفي وتكافؤ فرص التوظيف والتدريب والترقي، فضلاً عن تعزيز الحوار الاجتماعي ودور التنظيمات النقابية في حماية حقوق ومصالح العاملات والعمال.

كما دعا إلى توسيع فرص وصول المرأة البحرينية إلى مختلف المهن والمواقع القيادية، وتطوير السياسات التي تساعد على التوفيق بين المسؤوليات الأسرية والمهنية، بما يحول دون تأثير مسؤوليات الأمومة والرعاية سلباً على فرص المرأة في العمل والترقي والدخل.

وشدد التقدمي على أن العدالة في الأجر تمثل جزءاً أساسياً من العدالة الاجتماعية، مؤكداً دعمه للسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي تضع كرامة الإنسان وحقه في العمل اللائق في صميم العملية التنموية.

منظمة العمل الدولية: المساواة في الأجر حق أساسي وضرورة لتحقيق العدالة الاجتماعية

أكدت منظمة العمل الدولية أن المساواة في الأجر عن العمل المتساوي في القيمة تمثل حقاً أساسياً وأحد المرتكزات الرئيسة لتحقيق العدالة الاجتماعية، مشددة على ضرورة تسريع الجهود الدولية الرامية إلى سد فجوة الأجور بين النساء والرجال.

وجاء ذلك في بيان للمنظمة بمناسبة اليوم الدولي للمساواة في الأجر، الذي يصادف 18 سبتمبر، حيث أشارت إلى أن النساء على مستوى العالم ما زلن يتقاضين أجوراً تقل بنحو 18 في المائة عن أجور الرجال.

وأوضحت المنظمة أن هذه الفجوة لا تمثل مجرد مؤشر إحصائي، بل تعكس واقع ملايين النساء اللواتي يسهمن في دعم الأسر والمؤسسات والمجتمعات والاقتصادات، من دون أن يحصلن على أجر يعكس بصورة عادلة قيمة عملهن.

ودعت إلى تعزيز التعاون بين الحكومات وأصحاب العمل والعمال لمعالجة الحواجز الهيكلية التي تعيق تحقيق المساواة في الأجور، وتطوير القوانين والمؤسسات الداعمة للعدالة في الأجر، إلى جانب تعزيز الحوار الاجتماعي والمفاوضة الجماعية والشفافية في هياكل الأجور.

وأكدت أهمية معالجة التقليل من قيمة الأعمال التي تؤديها النساء، وضمان تكافؤ الفرص ومشاركتهن بصورة متساوية في القرارات المرتبطة بحياتهن الاقتصادية.

وأشارت منظمة العمل الدولية إلى أن التحولات المتسارعة التي يشهدها عالم العمل لا تغير من ثبات مبدأ المساواة في الأجر، مؤكدة أن أجندتها التحويلية للمساواة بين الجنسين في عالم العمل تعكس التزامها بمواصلة العمل من أجل تضييق فجوة الأجور.

وشددت على أن المساواة في الأجر ليست قضية اقتصادية فحسب، بل هي مسألة حقوق وكرامة وعدالة اجتماعية لجميع العاملين والعاملات في مختلف أنحاء العالم.

نقلاً عن حساب الفنان على «انستجرام»

كاريكاتير خالد الهاشمي

«العمل العربي» يعتمد توصيات لتعزيز التشغيل والحماية الاجتماعية والتحول الرقمي

اختتمت في القاهرة أعمال الدورة الثانية والخمسين لمؤتمر العمل العربي، باعتماد حزمة من القرارات والتوصيات الهادفة إلى تطوير سياسات العمل والتشغيل والتنمية الاجتماعية في الدول العربية، وتعزيز الحماية الاجتماعية والحقوق العمالية، ومواكبة التحولات التكنولوجية والمناخية.

وأكد المؤتمر أهمية تعزيز الحوار الاجتماعي بين أطراف الإنتاج الثلاثة، وربط النمو الاقتصادي المستدام بتوفير فرص العمل اللائق وتحقيق العدالة الاجتماعية، مع مراعاة الأولويات والخصوصيات الوطنية للدول العربية.

وشملت التوصيات دعم سياسات التشغيل والشمول المالي، وتعزيز الإنتاجية والتنافسية، وتشجيع الاقتصاد الرقمي والاستفادة من تطبيقات الذكاء الاصطناعي، إلى جانب تنمية فرص العمل الخضراء، والاستثمار في رأس المال البشري، وتمكين المرأة وتعزيز تكافؤ الفرص وتطوير منظومات الحماية الاجتماعية.

كما اعتمد المؤتمر عدداً من التوصيات المتعلقة بالتكيف مع التغيرات المناخية والتحول نحو الاقتصاد الأخضر، إلى جانب نتائج أعمال اللجان المعنية بالحريات النقابية وتطبيق اتفاقيات وتوصيات العمل العربية، واستراتيجية منظمة العمل العربية لتنفيذ «الرؤية العربية 2045».

وفي الشأن الفلسطيني، أكد المؤتمر دعمه لعمال وشعب فلسطين والأراضي العربية المحتلة، وأدان الانتهاكات التي يتعرضون لها، داعياً إلى مواصلة التحرك العربي في المحافل الدولية وتعزيز توثيق أوضاع العمال في الأراضي المحتلة، ودعم مشاركة دولة فلسطين في أعمال منظمة العمل الدولية وأجهزتها.

واعتمد المؤتمر كذلك تقارير منظمة العمل العربية عن أنشطتها وإنجازاتها، وخطتها للعامين 2027 و2028، إلى جانب توصيات لتعزيز التعاون بين المنظمة وأطراف الإنتاج الثلاثة وتطوير برامجها بما يخدم قضايا العمل والعمال في الدول العربية.

الحركة النقابية بين آمال التأسيس في البدايات وتحديات الحاضر

فلاح هاشم

كان من ضمن مبادرات جلالة الملك في بداية المشروع الإصلاحي، وبالتحديد في 24 سبتمبر 2002، أصدر جلالته المرسوم بقانون رقم (33) لسنة 2002 بشأن النقابات العمالية، لتمثل هذه الخطوة نقلة نوعية تتلاقى مع آمال وتطلعات ومطالب عمال البحرين لعقود، بالتصريح لهم بتكوين نقابات تهدف إلى تمثيلهم والدفاع عن حقوقهم، وتكون شريكة في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية بما يخدم البحرين وشعبها المعطاء.

ولذلك، جاء تلاقي العاملين في مجموعات ومن جميع القطاعات الاقتصادية، بما فيهم العاملون في القطاع العام، في اجتماعات متواصلة لم يتسع لها مبنى اللجنة العامة لعمال البحرين حينها، بل ساهمت العديد من المؤسسات المجتمعية في احتضان العديد من الاجتماعات التحضيرية والتأسيسية، ولا سيما ناديي العروبة والخريجين، وكذلك جمعية المهندسين البحرينية. اتساقاً واستجابةً مع ما بشر به المشروع الإصلاحي لجلالة الملك.

أولاً: آمال وتطلعات مرحلة التأسيس

انطلق تأسيس العمل النقابي في بداية الألفية في البحرين مدفوعاً بحزمة من الآمال العريضة التي ركزت على تحقيق العدالة الاجتماعية وحماية الفئات العاملة؛ بدءاً مما أقره قانون النقابات بالحق في التنظيم والتجمع، والاعتراف بالنقابات كممثل شرعي للعمال أمام أصحاب العمل والحكومة والحق في المفاوضة الجماعية.

وجاء ذلك عبر رافعة أساسية هي وحدة العمال في تنظيم موحد وديمقراطي ومستقل، وهو شعار ثبت في أدبيات الاتحاد العام لنقابات عمال البحرين كركيزة أساسية لأي عمل نقابي حقيقي، كما أنه استجابة لما طالب به عمال البحرين منذ فترة ستينيات القرن الماضي بوحدة العمال في تنظيمات نقابية؛ بهدف حماية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، من توفير فرص عمل تؤمّن حياة كريمة، وتحسين الأجور، وتوفير بيئة عمل آمنة وصحية، إضافة إلى توفير مظلة حماية اجتماعية تشمل التأمين الصحي، وتأمينات البطالة، ومعاشات التقاعد التي تؤمّن للمتقاعد وعائلته حياة كريمة... مما يؤدي إلى تقليص الفوارق الطبقية، وتأمين السلم الاجتماعي والازدهار المجتمعي.

ثانياً: تحديات الحاضر وإكراهات الواقع

تواجه الحركة العمالية والنقابية اليوم واقعاً معقداً يفرض عليها تحديات غير مسبوقة تهدد وجودها وقدرتها على القيام بواجباتها في الدفاع عن حقوق من تمثلهم:

• أولاً: وهي العقبة الأساسية حيث تتجسد في قضية الوحدة العمالية في ظل التشظي والتشرذم النقابي الذي أفضى إلى إضعاف قدرة النقابات على الدفاع عن حقوق العمال وتشتيت جهودها التفاوضية، وأفقدها قوتها في الضغط والمفاوضة الجماعية أمام أصحاب العمل والحكومة بسبب انقسام الصف العمالي. والشواهد على ذلك كثيرة، ومنها:

o تراجع ثقة العمال في الكيانات النقابية نتيجة الصراعات على التمثيل وغياب الإنجازات الملموسة، خاصة في الملفات المعيشية (الأجور، التقاعد، وسياسات سوق العمل الجائرة التي أدت إلى تفشي البطالة خاصة بين الكوادر المتعلمة)، مما أدى إلى تدني أعداد العاملين المنتسبين لنقابات وزاد من ضعفها.

• ثانياً: تنامي العمل غير المنظم بأشكاله المختلفة، والإشكالات والتحديات التي تواجه العاملين فيه؛ بدءاً من الصعوبة في تنظيمهم نقابياً، وصولاً إلى عدم شمولهم بالعديد من حقوق العمل مثل التأمين والإجازات وغيرها.

• ثالثاً: السياسات النيوليبرالية في إدارة سوق العمل من خصخصة وفتح السوق على مصراعيه من دون ضوابط مع رفع الحماية عن العمالة الوطنية وتسهيل استجلاب العمالة الوافدة.

• رابعاً: ما يفرضه التطور التكنولوجي المتسارع؛ حيث أدى إلى إلغاء وظائف تقليدية وظهور أنماط عمل جديدة لا تتناسب مع الهياكل النقابية الكلاسيكية مثل العمل عن بُعد والعمل المؤقت.

هذه بعضٌ من التحديات التي تواجه الحركة النقابية، والتي يجدر بجميع المعنيين والقيادات العمالية المتصدرة للمشهد العمالي في الوقت الراهن التمعن فيها والتوقف ملياً لمناقشة أسبابها وسبل معالجتها، والعمل على إيجاد الحلول الواقعية لها. وأولى هذه الخطوات هي العمل على استعادة التنسيق بين الهياكل العمالية المختلفة، إذا ما تعذر في الوقت الحالي استعادة وحدتها، كخطوة أولى في معالجة الداء الأساسي الذي نتج عنه ضعف هذه الحركة وهياكلها وأعاقها عن تأدية واجباتها.

«هُرمز» ذريعة لرفع الأسعار

غلاء السلع يضغط على جيوب المواطنين ومطالب بتشديد الرقابة

لم تعد تداعيات الأزمة الإقليمية واضطراب الملاحة في مضيق هرمز تقف عند حدود حركة السفن والشحن، بل بات أثرها يظهر بصورة متزايدة على فواتير التسوق اليومية، وسط ارتفاعات طالت عدداً من السلع والمنتجات الاستهلاكية في الأسواق المحلية، وأثارت تساؤلات حول مدى ارتباط كل هذه الزيادات فعلياً بكلفة الاستيراد والشحن.

ولا شك أن الأزمة أحدثت ضغوطاً حقيقية على سلاسل الإمداد. فحركة الملاحة عبر المضيق تراجعت بصورة حادة، وارتفعت تكاليف التأمين والمخاطر والشحن، فيما اضطر بعض المستوردين إلى استخدام مسارات بديلة أطول وأكثر كلفة. وأظهرت بيانات حديثة استمرار حركة السفن عبر المضيق عند مستويات متدنية للغاية مقارنة بما كانت عليه قبل الأزمة.

إلا أن المشهد في الأسواق المحلية لا يتمثل، في أزمة نقص في المواد الأساسية بقدر ما يتمثل في ارتفاع الكلفة على المستهلك. فالسلع الأساسية متوافرة في منافذ البيع، فيما أصبح المواطن يواجه زيادات متلاحقة في أسعار منتجات غذائية واستهلاكية مختلفة، بعضها شهد ارتفاعات كبيرة؛ إذ رصدت تقارير محلية أخيراً زيادة أسعار بعض أنواع السلع بنحو 20 في المائة، بينما سجلت بعض المنتجات الاخرى ارتفاعات وصلت إلى 150 في المائة.

مضيق هرمز السبب

فليس كل ما يصل إلى السوق المحلية يأتي بحراً عبر المضيق. قطاع النقل البري بين البحرين ودول مجلس التعاون لا يزال يعمل عبر شبكة الطرق الخليجية وجسر الملك فهد، وأكدت تقارير قطاع الشحن استمرار حركة الشاحنات بين دول الخليج، على الرغم من ارتفاع بعض الرسوم والضغوط التشغيلية. ولذلك فإن تأثير الأزمة يختلف من سلعة إلى أخرى وفق بلد المنشأ ومسار النقل وكلفة التأمين والتخزين الفعلية.

صحيح أن بعض البضائع التي تصل براً قد تكون قد بدأت رحلتها أصلاً عبر البحر، وبالتالي يمكن أن تتأثر بصورة غير مباشرة باضطرابات الملاحة، إلا أن ذلك لا يعني أن تصبح الأزمة مبرراً تلقائياً لزيادة سعر كل سلعة، خصوصاً المنتجات القادمة مباشرة من أسواق خليجية أو عبر خطوط برية مستقرة.

كما أن البيانات التجارية تظهر قدرة السوق على التكيف مع الأزمة وتنويع مصادر الإمداد. فقد سجلت الواردات الأساسية، زيادات كبيرة بعد اضطرابات سلاسل توريد المنتجات الاستهلاكية مقارنة بمستويات بداية العام.

وتزداد أهمية الرقابة في ظل هذا الواقع، للتمييز بين الارتفاع الذي تفرضه فعلياً تكاليف الشحن والتأمين والاستيراد، وبين أية زيادات لا تستند إلى تغير حقيقي في كلفة السلعة.

«التجارة» بالمرصاد

وسبق لوزارة الصناعة والتجارة أن اتخذت إجراءات بحق منشآت ثبت لديها رفع أسعار بعض السلع الغذائية من دون مبررات فعلية، إذ أغلقت في يوليو الماضي أحد المحال إدارياً بعد رصد زيادات غير مبررة ومخالفات تتعلق بإعلان الأسعار واختلاف السعر بين الرف ونقطة الدفع، مؤكدة حينها أنها لن تتهاون مع محاولات استغلال المستهلك أو التلاعب بالأسعار.

ومع استمرار الأزمة وامتداد أثرها الاقتصادي، تبدو الحاجة أكبر اليوم إلى تكثيف الجولات التفتيشية في الأسواق، ومقارنة الأسعار قبل الأزمة وبعدها، والتدقيق في فواتير الاستيراد ومسارات وصول السلع، بحيث يكون أي ارتفاع مرتبطاً بكلفة حقيقية يمكن إثباتها، لا بمجرد الإحالة العامة إلى "مضيق هرمز».

كما تبرز أهمية مراقبة أسعار السلع القادمة عبر المنافذ البرية بصورة خاصة، والتحقق من أسباب ارتفاعها ومدى تأثرها الفعلي بالأزمة، إلى جانب تشديد الرقابة على أسعار البدائل التي ظهرت في الأسواق نتيجة تغير مصادر الاستيراد، بما يضمن عدم تحميل المستهلك كلفة إضافية مقابل منتجات أقل جودة أو قيمة.

فالارتفاعات الصغيرة، حين تطال عشرات المنتجات في سلة الأسرة، لا تبقى صغيرة في نهاية الشهر. عشرة أو عشرون أو خمسون فلساً إضافية على كل منتج تتحول مجتمعة إلى دنانير تستقطع من دخل أسرة تواجه أصلاً ارتفاعاً مستمراً في تكاليف السكن والكهرباء والوقود والنقل والغذاء.

وفي الوقت الذي تتحمل فيه الأسواق جانباً حقيقياً من كلفة الأزمة الإقليمية، تبقى حماية المستهلك من الزيادات غير المبررة مسؤولية رقابية أساسية، بما يتطلب حضوراً أكثر كثافة في الأسواق وصرامة في مساءلة أي منشأة ترفع الأسعار من دون سند واضح، حفاظاً على القدرة الشرائية للمواطن ومنع تحول الأزمة إلى «شماعة» تعلق عليها زيادات لا علاقة مباشرة لها بمضيق هرمز.

بروز حراكنا النقابي الوطني

للحراك الوطني في وطننا دروبٌ بارزة على مر السنين، حيث مرّ على تأسيس العمل النقابي ٥٢عاماً، وقد برز هذا النشاط في الأول من مايو ١٩٧٤، حيث احتشد العمال في مسيرة بقيادة حراكنا الوطني وسطروا مواقفَ انتزعوا خلالها حقوقهم المشروعة. لم تغب عنأذهانهم تلك الفترة في مدٍ ديمقراطي رائع .. تلك التجربة الأولى في البحرين، حيث شهدنا صعوداً ملفتًا للحراك الوطني بكل أطيافه، أهّلنا لتجسيد انتصارات تاريخيةٍ يشهد لها شعبنا الأبي العظيم، حيث كانت الخطوات سليمة بلا تطرف وهذا الذي جعل انتصاراتنا نافذة إلا أنها لا تعجب البعض مما عزز انتكاسة لطبقتنا العاملة، حيث وقفت بعض المؤسسات المهنية التي خافت على مصالحها لأنها تفكر في الربحية لوحدها دون الرجوع لحقوق العاملين الذين يكدحون بلا كلل ولا ملل.

قاسم الحلال

لقد تصدينا للكثير من بؤر الفساد، الذي يستفحل اليوم حيث يفكر البعض بنعيمه الخاص دون أن يلتفت لوطن أو مواطن، وزاد الطينة بلّة، حيث أتى إلينا من الخارج شرذمة من الأجانب بحجة الاستثمار ولكن معظمهم أخذوا يعيثون في الأرض فساداً، حيث أتيح لهم التكسب والربحية، فأصبحت الأموال تُسرَّب إلى خارج الوطن، وذلك لبناء مؤسسات في أوطانهم غير عابئين بالتنمية الوطنية، لقد جاءوا للوطن بلا مؤهلات، كما أُتيحت لهم فرصة تكوين الذات على حساب المواطن الذي يتمنى هذه الفرصة وهذا الدعم الذي لا يكلف الدولة عبئاً، بل سيكون مساندة للمواطن، وذلك في سبيل التنمية الوطنية بطريقة سهلة وغير مكلفة، ولكي يتسنى للدولة النهوض في مشاريع مضمونة وناجحة في الآن ذاته.

إننا نطمح لواقع يقودنا إلى مزيد من النهضة الاقتصادية بمقدراتنا الوطنية، فنحن نعيش بين إطلالتين تختزلان عاملي زمان ومكان ولا يمكن الرجوع إلى الوراء لأننا نتمتع بوعي واضح ومدرك نقدم فيه إنجازاتنا للفت انتباه أصحاب الشأن لهذه الإنجازات ونأمل منهم التحقق من ذلك، حيث يتحتم علينا التخطيط الواعي للمتغيرات، وذلك لعملية الانتقاء المبني على أسس علمية مستقبلية مدروسة، وذلك القصد من ورائها إنجاز عمل جماعي للمصلحة العامة كما علينا قراءة المستقبل بصورة جليلة حفاظاً على مكتسبات الوطن.

لنعمل بجهد حقيقي للانتقال من وضعنا المتخلف إلى مرحلة بناء دولة عصرية بحق وحقيقة على أسس متينة مبرمجة لكي تتحقق الإنجازات بصورة ملموسة في جميع المجالات ولا يغيب عن ذهننا كيفية الحفاظ عليها باحترام الأجيال التي تحرص على الاهتمام في الاستمرارية والتطوير لكي لا تظل الأمور الإنجازية مكانك راوح.

لا ننسى أن الاستمرارية في التطوير مرهونة بالتغيير وفنية التأهيل المعرفي، فهناك صف لا يزال على كرسي الوظيفة منذ القدم لا يزالون وجهاً تنفيذياً أوحد .. لا دماء جديدة، فماذا عن الأجيال الجديدة الطموحة.

لهذا نعتبر أننا قد وثقنا مرحلة مهمة من نضالاتنا الطبقية بمواقف وأدوار ننتزع فيها حقوقنا العمالية وفي المقدمة النقابية رغم المصاعب التي واجهتنا أثناء مرحلة التوثيق، حيث فقدنا الكثير من المهام التي صعبت علينا في خضم التضحيات، لكن رغم ضياع بعض المصادر المهمة والعديد من الوثائق، حيث المداهمات وفقدان الرفاق، حيث من المعروف صعوبة الظروف، حيث دقة تلقي المصادر كوننا لا نريد توثيق مصادر غير دقيقة وصائبة.

لقد كانت سهامنا ولو بجزء يسير في تسجيل بعض نضالاتنا النقابية والعمالية كرواد ورغم أنه كان فخراً نستدل به .. ساطعاً ناصعًا على صفحات منابرنا، فبرز دورنا في أربع نقابات عمالية وهي نقابة العاملين في شركة "ألبا» برئاسة عبد الواحد عبدالرحمن، ونقابة العاملين في إدارة الكهرباء برئاسة المرحوم فخري العلوي، ونقابة العاملين في وزارة الصحة برئاسة عباس البحاري، ونقابة العاملين في والبناء والإنشاء برئاسة عباس عواجي، كما أن هناك كانت محاولات لوضع جسور بناء عمل نقابي في بعض المؤسسات، وفيها تحملت كوادرنا العمالية باالكثير وهي تؤسس هذه النقابات.

هناك كثيرة في تاريخ نضالنا العمالي الطبقي كما أن هناك أيضاً تقدم ملموس وبصمات لحراكنا الوطني بحكم أن لهذا الأخير باع كبير في تخصصات عدة ومتنوعة أضاءت مفاهيم حراكنا العمالي.

أُستاذي المناضل محمد حسين نصر الله

رضي السمّاك

غادر دنيانا، في الرابع عشر من يونيو / حزيران الماضي، المربي والمناضل الصلب، أُستاذي الفاضل محمد حسين نصر الله، وبرحيله فقدت الحركة الوطنية، وفقدت جمعية المنبر التقدمي، وفقد تيار جبهة التحرير الوطني في البحرين وقدامى مناضليه، مناضلاً كبيراً عنيداً صلباً في ساحات النضال كرّس جُل حياته للنضال الوطني بوجه عام، وللنضال الماركسي الاشتراكي الطبقي بوجه خاص.

تعرفت لأول مرة في حياتي على "الأستاذ" غداة نكسة يونيو/ حزيران عام 1967 وتحديداً في عام 1968، وذلك حينما كنت على مقاعد السنة الثانية الإعدادية في مدرسة الخميس الإعدادية، ولا يكاد عمري حينها يبلغ الثالثة عشرة، وكان يدرسنا مادة اللغة الإنجليزية، وكان انطباعي المتشكل عنه بأنه واحد من الأساتذة المتفانين في تأدية رسالتهم التربوية والمهنية بإخلاص، وقد بذل قصارى جهده ليرفع مستوى طلبته في اللغة الإنجليزية، وبصفة خاصة الذين دون المستوى المطلوب، إذ ليس خافياً أن قسماً منهم، دون أن أستثني نفسي، قد تشكل لديه رهبة من صعوبتها الشائعة حينذاك في الوسط الطلابي والمجتمع، سيما وأنهم يعلمون مقدماً بأن الرسوب فيها وفي مادة الرياضيات، ليس مشكلة، إذ يتيح لك النظام التعليمي وقتذاك النجاح والانتقال إلى السنة التعليمية التالية.

كما كان «الأستاذ» بطبيعته هادئًا، وليس من المدرسين الذين عُرفوا بتعاملهم اللفظي الخشن، أو استخدام الضرب والذين قد دأبوا على إحضار عصي الخيزران معهم في حصصهم الدراسية، حيث كانت هذه الوسيلة الفظة مشروعة لتأديب الطلبة غير المجدين أو المشاغبين على السواء، إذ لم نره قد أحضر معه هذه العصا الغليظة قط، ولم يكن يسعى من جانبه إلى استغلال مهامه التدريسية لفرض آرائه السياسية، كما كان يفعل المدرسون الآخرون من التيارات السياسية القومية المختلفة.

وما زلت أتذكر جيداً بأن أحدهم كان ينتقد أمامنا – بشكل تلقيني – الأنشطة والنضالات المحسوبة على «جبهة التحرير»، أو كما يسميهم «الشيوعيين» ويعمد إلى تكفيرهم واتهامهم بالعداء للرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر والوحدة العربية. وفي تلك الفترة كنا ونحن في هذه السن الغضة وقد تشكل وعينا السياسي الطري منقسمين على تلك التيارات، ولا أكاد أصدق اليوم كيف تشربنا تلك الأفكار السياسية مبكراً، بل وانتمينا إلى تلك التيارات السياسية الوطنية المتصارعة، ونحن ما فتئنا بذلك العمر الطفولي البريء دون أن نبلغ حتى سن المراهقة!

وبعد تخرجي من جامعة القاهرة عام 1976 وعودتي إلى الوطن البحرين بدأت أعرف بأن «أُستاذي» إنما ينتمي إلى التيار الاشتراكي الذي أنتمي إليه نفسه، ثم أخذت أتعرف عليه أثناء مروري على دكان الرفيق «أبو سلام» في قرية الديه، أو خلال زياراتي لمنزل هذا الأخير في قرية بني جمرة، أو في كثير من الأحيان أثناء زياراتي لدكان الرفيق موسى خميس في قرية السنابس. وبعد تأسيس «جمعية المنبر التقدمي» صرت ألتقيه لدى زياراتي الصباحية لمقر الجمعية بمدينة عيسى، حيث كنت أتبادل معه هموم الوطن وقضايا النضال الراهنة التي تشغل بال المناضلين، وكان «الأستاذ» مستمعاً جيداً، و محاوراً بهدوء من الدرجة الأولى، ينصت إلى آرائك جيداً بكل أريحية و رحابة صدر دون مقاطعة، و دون أن يملي عليك آراءه من موقع «الأستاذية».

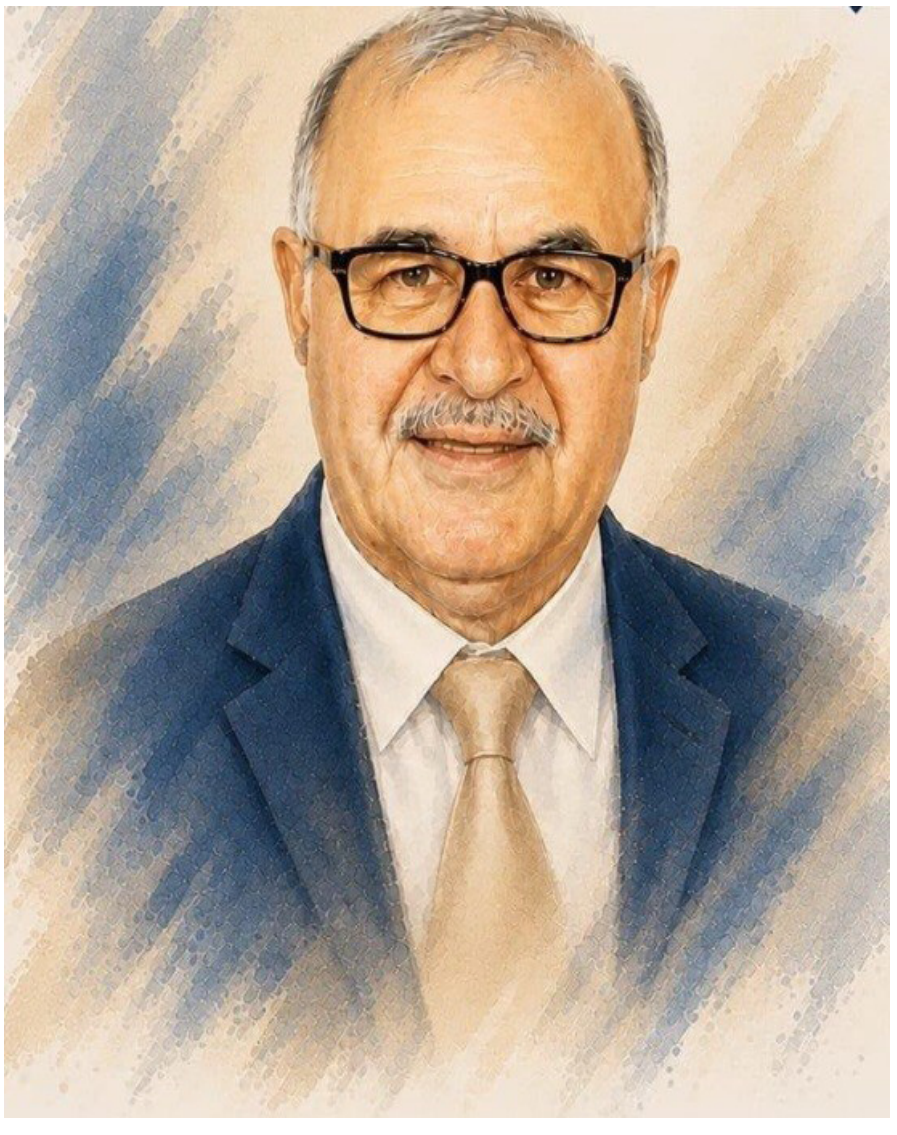

وأتذكر جيداً شغفه الكبير بمعرفة أي جديد عن الفكر الماركسي، فعلى سبيل المثال كنت أتذكر أنه خلال زيارتي الإعلامية لليابان منتصف تسعينيات القرن الماضي قد تم ترتيب مقابلة لي – بناء على طلبي المسبق في السفارة اليابانية بالبحرين – مقابلة مع مسؤول في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الياباني، وقد جرى اللقاء في مبنى الحزب الضخم المتعدد الطوابق في منطقة نائية من العاصمة طوكيو، وطلبت من هذا المسؤول إن كان بحوزتهم مطبوعات باللغة العربية، لكن الرفيق الياباني اعتذر بعدم وجودها، وسلمني عوضاً عن ذلك كتاباً باللغة الإنجليزية، وكان هذا الكتاب عبارة عن أحد التقارير السياسية التحليلية للجنة المركزية بالحزب، وما إن حدثته عن هذا الكتاب في إحدى دردشاتنا الصباحية في مقر المنبر التقدمي حتى طلب مني إحضاره ليطلع عليه، ثم قال لي في دردشة لاحقة: لن أعيده إليك، فتبسمت له، ثم أضاف: لكن لو سنحت لي الفرصة، سأكتب عن ذلك التقرير المفيد مقالاً أو عن الحزب الشيوعي الياباني.

هكذا كانت سيرة أستاذي المناضل محمد حسين نصر الله، هو الذي لطالما تعرض لاعتقالات عديدة، ولم تفت في عضده المعتقلات وغياهب السجون، واليوم وقد رحل عنا بجسده، فإن سيرته الإنسانية والنضالية الملهمة ستظل باقية نبراساً ملهماً لأجيال المناضلين من بعده لا تموت.

في ذكرى رحيل علي دويغر

قبل أيام قليلة، في السادس من سبتمبر/ أيلول، مرّت الذكرى السنوية لرحيل القائد الوطني علي دويغر، أحد رجالات البحرين الوطنيين الذين شكلوا بوعيهم المتقد وعملهم الدؤوب، سمات مرحلة كاملة من الكفاح الوطني من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، فدويغر هو أحد مؤسسي جبهة التحرير الوطني في البحرين؛ وأحد قادتها الكبار الذين اضطلعوا بدور مهم في بناء تنظيمها وفي صوغ وثائقها البرنامجية ورؤاها السياسية وفي نشر الوعي التقدمي في البلاد، كما اضطلع بدور مهم في تأسيس علاقتها الكفاحية بقوى ومنظمات التقدم والسلم والتضامن في العالم، وفي سبيل ذلك دفع ضريبة مواقفه الوطنية بالسجن والنفي، ولم يفت ذلك من عضده أو يضعف إرادته.

د. حسن مدن

دويغر أحد رجالات البحرين الوطنيين الذين شكلوا بوعيهم المتقدم وعملهم الدؤوب، سمات مرحلة كاملة من الكفاح من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي

بصمات علي دويغر واضحة في صوغ أول برنامج سياسي للحركة الوطنية والتقدمية التي تشكلت وناضلت بشكل سري بعد قمع هيئة الاتحاد الوطني في خمسينيات القرن الماضي من قبل سلطات الحماية البريطانية، ونعني به أول وثيقة برنامجية لجبهة التحرير الوطني التي عرفت بـ"برنامج الحرية والاستقلال الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي والسلم" الذي صدر في عام 1962، بعد مناقشته في منظمات وخلايا الجبهة يومذاك، كما أن علي دويغر بالذات كان من وضع مسودة برنامج كتلة الشعب لانتخابات المجلس الوطني في مطالع السبعينات، حيث كان مقرراً أن يكون أحد مرشحي الكتلة، لولا أن إيان هندرسون أمر بنفيه من البلاد إلى دولة الكويت، نظراً لدوره المحوري في جهود تأسيس الكتلة وفي مجمل العمل الوطني في البلاد.

وكان علي دويغر أحد أبرز قادة جبهة التحرير الوطني في انتفاضة مارس 1965، حيث تمّ اعتقاله بعد قمع الانتفاضة، وكان آخر من خرجوا من المعتقل بين المناضلين والوطنيين الذين طالتهم الاعتقالات والسجن في تلك المرحلة، وبعد خروجه من السجن استمر في نضاله الوطني، قبل أن يسافر لمواصلة دراساته العليا في السويد التي نال منها شهادة الدكتوراه، وهناك كانت له مساهماته في العمل الطلابي والوطني، وظلّ هذا دأبه بعد عودته للبحرين، حيث بقي فيها إلى حين اشتداد المرض عليه في السنوات القليلة الماضية مما اضطره للالتحاق بعائلته في السويد مجدداً، حيث وافاه القدر المحتوم هناك إلى جانب دوره الوطني.

دويغر باحثاً

كان علي دويغر باحثاً نابهاً قدَّم دراسات مُهمة عن خصائص التطور الاجتماعي السياسي في البحرين، بينها الأطروحة التي نال عنها درجاته العلمية في جامعة لوند بالسويد، ومن أبحاثه المهمة بهذا الصدد: "تحليل مقارن للإدارة العامة في البحرين"، "تأثيرات اللؤلؤ والنفط على العمل في البحرين»، و"الرأسمال الأجنبي والنمو السكاني"، فضلاً عن دراسات أخرى تتصل بقضايا الإصلاح الزراعي.

يتبع

اتبع علي دويغر في دراساته منهج التحليل العلمي لرصد وتحليل البنية الاجتماعية والطبقية في مجتمع البحرين في الفترات التي غطتها بحوثه

في دراساته اتبع علي دويغر منهج التحليل العلمي، المادي التاريخي، في رصد وتحليل البنية الاجتماعية والطبقية في مجتمع البحرين في الفترات التي غطاها في بحوثه، فهو على سبيل المثال يقدم في بحثه عن آثار صناعة اللؤلؤ والنفط توصيفاً للتركيب الطبقي في المجتمع البحريني، ملاحظاً أن المظاهر الإقطاعية ظلت فاعلة رغم تقدم علاقات الإنتاج الرأسمالية مع مجيء النفط، مما أوجد تركيبة طبقية غريبة، أو حالة خاصة، وهو بهذا كان يتلمس مبكراً ما يتركه النفط من تأثيرات في بنية اجتماعية محافظة.

في دراسته عن: "تأثيرات اللؤلؤ والنفط على العمل في البحرين"، تنبه دويغر إلى أن صناعة النفط أوجدت طبقة عاملة صناعية، إلا أن الكثرة الكاثرة من العمال غير الماهرين بسبب ضعف مستويات التعليم، وغير المنفصلين عن البيئة المحافظة التي أتوا منها، يجعل منهم بروليتاريا رثة تعيق تبلور وتماسك الطبقة العاملة الحديثة، ويلاحظ، في الآن ذاته، وجود قطاع لا بأس به من العمال يعملون في مؤسسات صغيرة ومتوسطة، وهذا التشظي يحمل تأثيراً سلبياً على تشكيل الوعي الطبقي.

وفي تلك الدراسة رأى علي دويغر أنّ البرجوازية الوطنية، آنذاك، صغيرة العدد وهي تجارية الطابع، وتعاني من اختراق السوق من قبل الرأسمال الأجنبي والشريحة المتنفذة من البرجوازية المتحالفة معه والمستفيدة من مزايا هذا التحالف.

أما في دراسته المهمة الأخرى عن: "الرأسمال الأجنبي والنمو السكاني" التي وضعها عام 1972، فقد انطلق دويغر من حقيقة أنّ صناعة النفط في البحرين لم تأتِ جراء النمو الطبيعي للصناعة المحليةَ، وإنما جراء التوسع الدولي للرأسمالية والرغبة في الحصول على مصادر طاقة رخيصة، ليناقش الآثار المختلفة لنشوء صناعة النفط على النمو السكاني، وليحلل أوجه التركيبة السكانية في مجتمع البحرين.

ينقل الباحث عن أحد الدارسين أن صناعة النفط تعدّ من أكثر الصناعات كثافة، وهذا ليس نابعاً من استخدام الحرفيين وبالطبع ليس من جراء استخدام ميكانيكيين مهرة، بل من جراء استخدام التكنولوجيا والإداريين ومجموعات المبيعات وما شابه ذلك.

وتُعد هذه الدراسة، فيما نرى، مصدراً جيداً للباحثين الراغبين في تتبع تطور التركيبة السكانية في المجتمع البحريني منذ العقود الأولى للقرن العشرين، لأنّها دراسة كتبت بمنهجية، واستعان فيها الباحث لا بنظريات النمو السكاني وتحليل آليات التخلف في المجتمعات النامية فحسب، وإنما أيضاً بمادة إمبريقية ثرية من الإحصائيات والبيانات ذات الصلة بتطور النمو السكاني في البحرين آنذاك.

من أكثر فصول الدراسة تشويقاً الفصل الذي نظر فيه علي دويغر في ما أسماه "المسألة المدينية – الريفية"، التي يذهب فيه إلى أنه ليس من الضروري رسم خطوط بين ما هو مديني وما هو ريفي في حال البحرين، فالمدن هي مراكز تجمعات سكنية في بلد لا تتجاوز مساحته (آنذاك)عشرين ميلاً، خاصة وأن الإحصائيات الرسمية، كما تشير الدراسة، لا تقدم تصنيفات مختلفة للسكان من وجهة النظر هذه، في غياب مفهوم المدينة الصناعية على النحو الدارج في الغرب، وهذا عائد إلى التضارب في توزع الثروات الطبيعية والقدرات البشرية، التي تُلاحظ في أغلب الاقتصاديات العربية.

يعقد علي دويغر، وهو يبحث التركيبة السكانية، مقارنة بين قانوني الجنسية في البحرين، القديم الصادر عام 1937، والذي صدر بعده في عام 1963، وهي مقارنة مفيدة، ليلاحظ أنّ التوزع العمري يتأثر، مباشرة، بثلاثة عوامل متغيّرة هي الهجرة والولادات والوفيات، مشدداً على أنّ عامل الهجرة هو المتغير الذي يلعب الدور الأكبر.

وهو استنتاج يظل صحيحاً اليوم أيضاً في صورته العامة، ولو قدر لعلي دويغر أن يواصل تحليله هذا على ضوء التطورات الراهنة لأعاننا على فهم مظاهر التحولات الاجتماعية السياسية الراهنة.

دويغر وتاريخنا الوطني

رحيل علي دويغر، وقبله، وبعده أيضاً، رحيل قادة وطنيين ومؤسسين لجبهة التحرير الوطني والتنظيمات الوطنية الأخرى في البحرين وكوادر مرموقة فيها، يطرح مجدداً مسألة تدوين التاريخ الوطني للبحرين، فعلي دويغر كان من ضمن الحلقة الريادية الصغيرة التي تبنت الأفكار اليسارية والتقدمية، في خمسينيات القرن الماضي، وهو وقت مبكر نسبياً بالقياس للطبيعة الخاصة لمستوى التطور الاجتماعي والسياسي في هذه المنطقة.

ودويغر الذي درس في كلية التجارة في جامعة بغداد وانخرط في الحياة الطلابية النشطة التي نشطت في إطار النهوض الوطني في العراق عشية وبعد ثورة الرابع عشر من يوليو/ تموز 1958، وبسبب تسارع التطورات السياسية هناك حيل بينه وبين البقاء في العراق، حيث عمل بعد ذلك في قطر، قبل أن ينتقل للكويت ليصبح مديراً لتحرير جريدة "الهدف"، لكنه لم يمكث هناك طويلاً بسبب تناوله للأوضاع السياسية في مقالاته.

ومن طبيعة الوثائق البرنامجية التي ساهم الفقيد في وضعها لتنظيمه وللحركة الوطنية عامة، ومن مستوى دراساته وتحليلاته التي أشرنا أعلاه على عجالة سريعة، لعينات منها، نجد أنفسنا أمام قائد ناضج ومثقف، ومثل هذه الصفة نجدها عند قادة آخرين من النواة القيادية المؤسسة لجبهة التحرير الوطني، ممن رحل منهم مثل الفقيد أحمد الذوادي، وممن لا يزالون على قيد الحياة، أطال الله في أعمارهم، ورغم أن المنبر التقدمي اعتنى في نشرته الشهرية التقدمي"، على مدار سنوات، بإجراء حوارات مع بعض هؤلاء وتدوين ما تيّسر من معلومات عنهم وعن دورهم الكفاحي وذكرياتهم عن العمل الوطني في البحرين، كما قامت شبيبة التقدمي" بإجراء مقابلات مصوّرة مع بعضهم، عرض بعضها في مناسبات سابقة، إلا أن ذلك يظلّ أقل بكثير من الجهد الكبير المطلوب لتدوين هذا التاريخ الحافل.

وأسباب ذلك متعددة، بينها عدم ميل هؤلاء الرفاق لكتابة مذكراتهم، خاصة مع صفة التواضع ونكران الذات لديهم التي تجعلهم غير ميالين للحديث عن أدوارهم النضالية في تلك الفترات الصعبة، فضلاً عن أن مثل هذه المهمة لا يمكن أن تكون عملاً فردياً، وإنما يجب أن يضطلع بها فريق جماعي مهتم، وفي المنبر التقدمي، كما في التنظيمات الوطنية الأخرى، تشكلت لجان لهذا الغرض، وقامت على مدار سنوات ببعض الجهود، ومن بينها إصدار "التقدمي» لعينات من كتابات وذكريات بعض مناضلي جبهة التحرير الوطني كالقائد الوطني أحمد الذوادي والفنان المناضل مجيد مرهون والمناضل عبدعلي الخباز رحمهم الله، الذين دوّنوا شذرات من سيرتهم النضالية، وذكرياتهم عن البحرين في سنوات الجمر في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات وما تلاها، وقامت الأستاذة فوزية مطر زوجة المناضل الراحل أحمد الشملان الرئيس الفخري للمنبر التقدمي بتدوين مُفصّل لسيرة رفيق دربها، وصفحات من تاريخ الحركة الوطنية، لكن لا يزال الكثير من الصفحات المضيئة والصعبة للتاريخ الوطني في البلاد غير مدوّنة ومجهولة من الأجيال الجديدة.

أبو باسل .. نموذج المواقف الصادقة

ودَّع جمع مميّز في قِيَمِه الإنسانيّة ممن ينتمون لمختلف أطياف المجتمع، ومن مناطق مختلفة من البحرين، المناضل التاريخي في الحركة النقابية «أبو باسِل» القامة والشخصيّة الاجتماعيّة والوطنيّة بعد مسيرة حافلة من الكفاح والعطاء في مسيرة العمل النقابي والاجتماعي والوطني، الشخص العصامي الذي عاش حياة صعبة مُحاطة بقسوة الزمن ومرارة المعيشة، وتنقُّل بين دول الخليج وحفر في الصخر بحثًا عن الرزق، وعمل في مهن صعبة وخطيرة في عُمق البحر متسلّحًا بالصبر لتأمين حياة مستقرة لأسرته، وظلّ متمسّكًا بذلك المسار حتى رحيله المُفاجئ الذي شكّل صدمة لأقاربه ورفاق دربه الذين كانوا في لقاء معه حتى منتصف الليل.

د. شبر الوداعي

سيد جعفر قامة اجتماعيّة وطنيّة حافلة بالكفاح والعطاء في العمل النقابي والاجتماعي والوطني

الفقيد مع المناضل أحمد الشملان

الفقيد مع المناضل عبدالله البنعلي

وكان لمسيرة مواقفه الصّادقة والنزيهة أثرها البارز فيما شهدناه من إشادات بمناقبه في وسائل التواصل الاجتماعي، وما شهدناه من تفاعل قامات اجتماعية وشخصيات وطنيّة مهمّة في التشييع وتقديم واجب العزاء، الموقف الذي يؤكّد على المآثر القيِّمة الاجتماعيّة والوطنيّة للراحل.

النزاهة وقول كلمة الحقّ ونُصرة المظلوم ومؤازرة الرُّؤى الحكيمة، والمساهمة في تنوير وتعزيز ثقافة التوجّه الصائب للجيل الصاعد بالتعاون مع رفاق دربه في الاهتمام بالتعليم والتحصيل الدراسي والمعرفي، والتميّز بنكران الذات في تبني المواقف الاجتماعيّة والوطنيّة المسؤولة، والوقوف بحزم في نصرة المواقف العادلة والصادقة، وعدم مهادنة المواقف غير الموزونة، والتصدّي بحزم للمواقف غير الصادقة في بُعدها الاجتماعي، المشهد التاريخي الذي أكّد حضوره بمسيرة مواقفه في نبذه لمختلف أشكال التفرقة الاجتماعيّة وقيادة حركة التنوير لإحباط التوجّه لشقّ وحدة الصفّ الاجتماعي في قرية باربار.

المآثر التاريخيّة والجهد الاجتماعي والوطني في مسيرة الراحل التي تميّز بها في علاقته بشرائح المجتمع في مختلف مناطق البحرين على اختلاف انتماءاتها الاجتماعيّة والعرقيّة، والقيمة الشخصيّة للراحل في معالجته للقضايا الاجتماعيّة، ونقاء مواقفه وصدقه، دفعت أحد نشطاء التواصل الاجتماعي لقول كلمة حقّ في توصيف القيم الأخلاقيّة للراحل بالقول «جعفر .. رجل نظيف .. شريف .. صادق .. عفيف».

إنّ من محاسن مواقفه التاريخيّة قيادة الحركة التنويرية في وسط الجيل الصّاعد في قرية باربار مع رفيق دربه المربي الفاضل الراحل إبراهيم خليل الجمري مع مجموعة من الشباب الذين يتبنّون مسار التنوير لتحفيز شباب القرية على الاهتمام بالتحصيل الدراسي والتفوق العلمي وتحصين الناشئة من خطر آفة المخدّرات، المسار الذي ترك أثره المشهود في تخرّج الكوادر المُتعلّمة والذين تقلّدوا وظائف ومواقع مهمة في القطاع الحكومي، ومحاصرة مجموعات التخريب الاجتماعي وإبعاد فئة كبيرة من الناشئة عن الوقوع في شباك الرذيلة ومقبرة المخدّرات.

رحمك الله يا أبا باسل رحمة الأبرار، لروحك الطمأنينة والسّلام.

بصراحة

سيد جعفر الوداعي... مناضل عشقَ الحزبَ والوطنَ

فاضل الحليبي

يوم الأحد ٣٠ أغسطس ٢٠٢٦، رنَّ هاتفي النقال في تمام الساعة ١٢:١٢ ظهرًا. المتصل كان الدكتور شبر الوداعي ليخبرني: سيد جعفر في ذمة اللّه. كان خبرًا صاعقًا، كيف حدث ذلك؟... يقول شقيقه الدكتور شبر: قبل الاتصال بك وصلني خبر وفاته.

قبلها بيوم، عند الساعة ٥:٤٥ مساءً كنت في زيارته في المستشفى، وكان يتحدث معنا (بوجود ابن عمه السيد يوسف فاخر الوداعي)، والابتسامة لا تفارقه، ويخبرنا بأنه سوف يُنقَل غدًا، أو بعد غدٍ، إلى مركز محمد بن خليفة المتخصص في أمراض القلب لإجراء عملية قسطرة في القلب، ويقول إن ابنه سيد زكي قال له: لا تجري العملية. قلت له: هذه عملية قسطرة ليست خطرة، مثل عملية القلب المفتوح.

المناضلان العماليان: سيد جعفر وأحمد سند البنكي

سيد جعفر مع عدد من رفاقه الأحياء والراحلين

لا أعرف كيف انتكست حالته الصحية في اليوم الثاني، ولم يستطع الأطباء والممرضون إنقاذ حياته.

أعرف المناضل العمالي الراحل أبو باسل" منذ مرحلة المجلس الوطني في أعوام 1973/1975، كان يأتي باستمرار، من قريته، باربار، إلى فريقنا «الحمام" لزيارة الرفيق العزيز الراحل عبدعلي الخباز "أبو أنس"، العضو القيادي في جبهة التحرير الوطني، راكباً دراجته النارية "موتر سيكل"، التي كان يستخدمها أيضًا لمهام حزبية مثل توزيع المنشورات الصادرة عن الجبهة، وكان يعتبر الرفيقَ الراحلَ عبدعلي الخباز بمثابة الأب الروحي له، وكثيرًا ما حدَّثني عنه وهو يعدِّد مناقبَه وأخلاقَه وتفانيَّه في العمل الحزبي، وأنه رفيقٌ يختلف عن الآخرين، وهو كذلك.

كان الرفيق الراحل سيد جعفر عندما يأتي إلى المقابر في أي منطقة من مناطق البحرين لتوديع رفيقٍ ما، يبكي عليه بحرقةٍ وألم شديدين، وظلَّ مخلصًا ووفياً لحزبه، جبهةَ التحرير الوطني، لم يتخلَّ أو يتزحزح قيد أنملة عن أفكارها ومبادئها وأهدافها، كان مثل العاشق المحب لها.

عند انهيار الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية في نهاية ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن الماضي، هرول كثيرٌ من الماركسيين نحو الأفكار الليبرالية معتقدين بأنها هي الخلاص للإنسان في هذا العالم. أثبتت الأيام والسنوات الماضية بأنها كذبةٌ كبيرةٌ روَّج لها المنظرون في الغرب، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا بها تكشف عن وجهها القبيح في أكثر من حدث حول العالم، ويكفي التوقف عندما يجري في منطقتنا وتحديدًا في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ سنوات، وآخرها السنوات الثلاث الأخيرة، ما شاهدناه وشهده العالم أجمع من إبادة جماعية في غزة قلَّ نظيرها في العصر الحديث من قبل قوات الاحتلال الصهيوني وبمشاركة الأمريكان والأوروبيين، مخلفة أعداداً مهولة من الضحايا، شهداء وجرحى، فضلاً عن الآلاف من الأسرى في السجون والمعتقلات الصهيونية.

كان الرفيق أبو باسل حريصًا على المشاركة في المسيرات والتظاهرات والاعتصامات المؤيدة والداعمة للشعب الفلسطيني المقاوم والتي تُنظَّم من قبل الجمعية البحرينية لمقاومة التطبيع مع العدو الصهيوني، وبالرغم من المرض وصعوبة المشي بالنسبة إليه، كان يصرُّ على الحضور والمشاركة، ويقول إنه شيءٌ بسيط يُقدَّم من قِبلنا للقضية الفلسطينية.

أما في القضايا المحلية والمعيشية، كان سيد جعفر المناضل والكادح صريحًا وجريئًا، يقول رأيه بشجاعة، ربما يختلف معه، حولها، آخرون.

منذ أن انضمَّ في صفوف جبهة التحرير الوطني في عام 1967، نشط فيها ونشر أفكارها ومبادئها في مواقع العمل وفي قريته باربار، حيث كان من الرعيل الأول في نشر الأفكار والقيم الإنسانية ودفع الثمن غاليًا، وكان له دورٌ بارزٌ في إضراب الكهرباء الشهير عام 1968 في محطة التشغيل في أم الحصم، مع رفاقنا موسى خميس وإسماعيل العلوي وغيرهما من الرفاق والأصدقاء المشاركين فيه، وشارك مع الوفد العمالي المفاوض مع المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، حاكم البحرين آنذاك، حيث طُرحت المطالب النقابية في اللقاء.

تمَّ اعتقال رفاقنا لفترات متفاوتة، ومن ضمنهم سيد جعفر لمدة ثلاثة أشهر، وبعدها فُصِل من العمل، ومع بداية سبعينيات القرن الماضي اُعتقِل أكثر من مرة.

ساهم في النقاشات والحوارات المطالبة بعودة الحياة النيابية وإشاعة الديمقراطية وإطلاق سراح المعتقلين والسجناء السياسيين وعودة المنفيين إبَّان فترة قانون أمن الدولة الذي استمرَّ لمدة ربع قرن منذ حل المجلس الوطني في أغسطس من عام 1975 حتى فبراير 2001، ووقَّع على العريضتَين النخبوية والشعبية في أعوام 1992/1994 من أجل تحقيق المطالب المذكورة سلفًا.

شارك مع رفاقه في تأسيس المنبر التقدمي بعد إقرار ميثاق العمل الوطني في عام 2001، حريصاً على حضور فعاليات التقدمي، وهو عضوٌ في اللجنة السياسية بالتقدمي، وحرص على المشاركة في المجالس الشعبية، وبالأخص مجلس النائب السابق علي ربيعة في المحرق كل يوم جمعة، ومجلس عائلة بن رجب في بني جمرة.

سيبقى المناضل العمالي الرفيق سيد جعفر الوداعي "أبو باسل" خالدًا في قلوب الرفاق والمحبِّين والأصدقاء.

سيد جعفر إبراهيم الوداعي في رحاب الله

في حشدٍ مهيب شيعت باربار والقرى المجاورة ابنها البار السيد جعفر إبراهيم الوداعي إلى مثواه الأخير. وبذلك أسدل الستار على مسيرة حياتية مناضلة ومكافحة كانت ملء السمع والبصر في باربار وعموم البحرين على امتداد عشرات السنين، وكانت تحلم بالعدالة والمساواة والديمقراطية. كان الرفيق والمناضل أبو باسل متمردًا منذ يفاعته على الأوضاع عمومًا وعلى الظلم خصوصًا، وظلّ طوال حياته متمسكًا بمبادئه وبالطريق الصعب، والباهظ الثمن، الذي اختطه لنفسه، ولم يتزحزح قيد أنمل، حيث بقي هو هو السيد جعفر المناضل والمكافح برغم كل الصعوبات والعقبات التي واجهها، كما في ذلك سنوات الاعتقال والسجن على امتداد سبعينات القرن الماضي.

يوسف مكي

الفقيد مع الشخصيتين الوطنيتين: جاسم مراد وعلي ربيعة والرفيق أحمد سند

وعلى الرغم من تقدّمه في السن ظلّ السيد جعفر يستذكر السنوات الصعبة، ولكنه لم يتبرم، بل كان دائمًا يتفاخر بنضاله وبأحلامه، وهذه هي عادة وأحلام المناضلين، والسيد أحدهم. فلا غرابة أن يتباهى بالمواقف البطولية التي وقفها من أجل قناعاته وأفكاره وأحلامه.

كان السيد صاحب مواقف منذ بداياته، وقد دلل على ذلك في أكثر من موقع، حيث كان يتقدم العمال المطالبين بحقوقهم، بل كان يجتمع ببعض المسؤولين من أجل رفع تلك المطالب وضرورة تحقيقها باعتبارها حقوقًا وليست منة من أحد.

هذا جانب واحد فقط من جوانب شخصية السيد جعفر، فهناك البعد الإنساني في شخصيته، وقد كنتُ على معرفة به عن قرب، فكان حلو المعشر، وكان حساسًا جدًا تجاه ذوي الحاجات، كما كان معينًا لمن يتعرض لظلم من أي نوع، فلا يبخل بمساعدة مادية ولا مساعدة معنوية لمن يطلبها، في كل الأحوال كان صديقًا وصدوقًا في علاقاته. كما كان مبادرًا في تلبية حاجة أي محتاج يلتقي به أو يطرق باب بيته. وبالاتساق مع إنسانيته كان لا يساوم في الحق، ولا يداهن، ولا يقبل بأنصاف الحلول، فهو صارم كالسيف في نصرة ما يراه حقًا.

إلى ذلك كان أبو باسل قويم الأخلاق والمثاقب، وكثير التقدير لأصدقائه ورفاقه، كما كان يمتاز بالكرم والأريحية إلى أبعد الحدود، وقد كان بيته مفتوحًا للأصدقاء، حيث يفيض عليهم بكرمه ونصائحه وأخلاقه.

ولكن أبا باسل كان صاحب رأي ورؤيا. فكلما التقيته أمازحه بسؤالي: سيد، ما أخبار الأمة؟ فيجيبني جوابًا مختصرًا لكنه مليء بالمعاني والرؤية الثاقبة، حيث يقول: «الأمة في غمة». وما زال جوابه قائمًا على الرغم من رحيله. وهكذا هم أمثال السيد جعفر، حيث يرون ما لا يراه الآخرون.

نعم، لقد فقدنا صديقًا عزيزًا طالما أكلنا وشربنا معه، وسنظل نتذكره كما ستتذكره باربار.

كان يتقدم العمال المطالبين بحقوقهم.. ويجتمع ببعض المسؤولين من أجل رفع تلك المطالب وضرورة تحقيقها

قتل الأسرى .. حين يشرعن ما لا يجب أن يشرعن

خليل يوسف

قانون إعدام الأسرى ليس مجرد خطوة إضافية في سلسلة الانتهاكات، بل هو لحظة سقوط أخلاقي كامل

لم يكن ينقص المشهد الدموي في غزة الجريحة، وفي عموم فلسطين الحبيبة، إلا آلة القتل المنهجة التي تستظل بالقانون التي ينفذها الكيان الصهيوني بحق المدنيين الفلسطينيين، أي "دليل إضافي" على أن هذا الكيان يتصرف خارج إطار القانون الدولي والإنساني، وأن خطوته تلك شكلت الطعنة المسمومة في قلب المنظومة الدولية لحقوق الإنسان.

الحديث هنا عن إقرار الكنيست الإسرائيلي إعدام الأسرى الفلسطينيين، والمفارقة أن هذه الخطوة تأتي في الوقت الذي يشهد فيه العالم جدلًا واسعًا مثارًا في الدول التي تطبق عقوبة الإعدام بناءً على أحكام قضائية حول عدالة الإعدام، فكيف حين تُطرح هذه العقوبة في سياق نزاع سياسي معقد، هنا يصبح النقاش ليس قانونيًا فقط، بل أخلاقيًا وإنسانيًا، هل يمكن أن يتحول القانون إلى أداة انتقام، هل يمكن أن يُستخدم القضاء وسيلة لتكريس الصراع لا لحلّه، هناك دول أوقفت هذه العقوبة، وأخرى علّقتها، وثالثة تُقيّد استخدامها بأضيق الحدود إدراكًا لخطورتها الأخلاقية والقانونية، ولكن الكنيست الإسرائيلي لم يعطِ أي اعتبار لذلك، بل أقر إعدام الأسرى في سياق هو الأكثر تعقيدًا وحساسية، سياق الصراع، وهنًا تتضاعف المفارقة لأننا لا نتحدث عن نظام قضائي مستقر يقر عقوبة مثيرة للجدل، عن قوة احتلال في حالة نزاع تُقِرّ عقوبة قصوى بحق أسرى يفترض أنهم تحت حماية القانون الدولي ..!!

المعروف أنه وفق اتفاقيات جنيف هناك قواعد واضحة تحكم معاملة الأسرى، وتفرض قيودًا صارمة على العقوبات، لكن ما يحدث اليوم،

يكشف مرة أخرى هشاشة النظام الدولي: قوانين موجودة، لكن تطبيقها انتقائي، مبادئ معلنة لكن الالتزام بها مشروط، وهنا تتكرر المفارقة وهي أن العالم الذي يطالب بالعدالة يقف عاجزًا أمام خروقاتها وانتهاكاتها ..!إسرائيل لم تعد تكتفي بقتل المدنيين، ولا بقصف المستشفيات، ولا المدارس، ولا استهداف الملاجئ وحتى اعتقال الأطفال، بل اعتمدت إطارًا قانونيًا يُلبس الجريمة ثوب الشرعية، هنا لا توجد محكمة، ولا معايير، ولا محاكمة عادلة، ولا شروط حرب، هناك شيء واحد فقط، شرعنة القتل كخيار سياسي ..!!

إنه انقلاب صريح على كل ما ورد في الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان، ومواثيق حماية الأسرى، والقانون الدولي الإنساني، بل هو مخالفة حتى لمعايير الأنظمة الاستبدادية التي تخجل من إعلان هذا النوع من القوانين علنًا، إذن نحن هنا لسنا أمام خطوة إضافية في سجل الانتهاكات، بل أمام طعنة مباشرة في قلب الفكرة الإنسانية نفسها، انتقل فيها الكيان الصهيوني المحتل من قتلٍ ميداني، ومن قصف مدنيين، ومن تدمير البيوت فوق رؤوس ساكنيها — إلى مستوى أكثر وقاحة، قتل الأسرى بغطاء قانوني ..!!

حين سنّ الكنيست قانونًا يسمح بإعدام الأسرى الفلسطينيين فإنه كتب وثيقة إعدام للقانون الدولي، والصدمة الأكبر ليست فقط في تشريع القتل، بل يضاف إليه مشهد وزير "الأمن القومي" الإسرائيلي المتطرف إيتمار بن غفير وهو يوزّع الحلوى على أعضاء الكنيست بعد تمرير القانون، أي حضيض أخلاقي يمكن أن يصل إليه نظام سياسي، حين يحتفل وزير فيه — بكل فخر — بـــ"حق القتل"، هذا المشهد وحده يكفي ليعيد تعريف إسرائيل، ويجعل الرأي العام العالمي أمام مشهد سادي بحت، موقف يحدث في "دولة" مصطنعة تعرف جيدًا أن الأمم المتحدة عاجزة عن فعل شيء، وأن العالم ليس بمقدوره سوى الاكتفاء بالإدانة اللفظية، وهي بذلك تؤكد للعالم أن الفلسطيني لا قيمة له، حيًا أو أسيرًا، بلا حقوق، وحتى إن سلّم نفسه مصيره الموت ..!!

ما قيمة اتفاقيات جنيف إذا كانت دولة الاحتلال تقتل الأسرى بقانون، ما قيمة المحكمة الجنائية الدولية إذا كانت لا تتحرك، ما قيمة المنظمات الحقوقية إذا لم تستطع إيقاف جريمة واضحة ومعلنة ومخزية، صحيح أننا وجدنا إدانات واستنكارات هنا وهناك على تلك الخطوة، ولا شيء خارج حدود ذلك، بل إن مجمل المواقف وردود الفعل بدت خجولة، إن لم تبدُ شكلًا من أشكال الصمت العالمي، وهذا ليس حيادًا إزاء جريمة مروعة، بل مشاركة سلبية في الجريمة، وكما قال الفيلسوف الألماني هانا آرنت "الشر لا ينتصر بفعل الأشرار، بل بصمت الآخرين».

أي انحطاط قانوني وأخلاقي يمكن أن يصل إلى هذا الحد، وأي رسالة يمكن أن توجهها للعالم، وأي قيمة بقيت لمزاعم ذلك الكيان بأنه يمثل الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، أمام قانون هو في أبسط تحليل يعني إعلان موت القانون الدولي، قانون عبّر الكيان الصهيوني من خلاله وبشكل فج بأنه يسخر من القوانين والأعراف الدولية، ويضرب القيم الإنسانية والحقوقية في الصميم، ويحول الانتقام إلى سياسة رسمية، وإذا كانت تلك الخطوة محاولة من محاولات كسر إرادة الفلسطينيين فإن عليه أن لا ينسى أو يتناسى أن الأسرى هم جزء من البنية الوطنية الفلسطينية واستهدافهم على هذا النحو هو استهدافٌ للروح والرمز والصمود، ليس ذلك فقط، هذا القانون رسالة للعالم العربي، رسالة واضحة يقول من خلالها الكيان الغاصب إنه لن يلتزم بأي معيار أخلاقي، سياسي، حقوقي، إنساني، وأنه لا يأخذ اعتبارًا لأي ضوابط، ومنطقيًا، هذا القانون لا علاقة له بالأمن، ولا بالردع، ولا بأي ذريعة إسرائيلية من الذرائع التي تعودنا عليها، إنه قانون "اغتيال" داخل غرفة تشريعات، قانون "إبادة" مغلف بعبارة "حماية الدولة" ..!!

صحيح أن القرار لم يمرّ بصمت، على المستوى العربي، صدرت إدانات رسمية وشعبية تؤكد على الرفض وتحذير من تداعياته، وعلى المستوى الدولي، توالت مواقف منظمات حقوقية، في المقدمة منها هيومن رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية التي شددت على أن عقوبة الإعدام، وخاصة في سياق الصراع، تمثل انتهاكًا خطيرًا للحقوق الأساسية، كما عبّرت أطراف دولية عن قلقها مؤكدة أن مثل هذه الخطوات تُفاقم التوتر ولا تُسهم في الحل، لكنها بالنهاية مواقف باهتة لا تعكس خطورة الحدث، اكتفى الجميع بتلك المواقف دون اتخاذ أي إجراء، أو موقف صارم، وكأن هناك موافقة ضمنية على ذلك التشريع المخجل، وهنا نستذكر ما قاله الفيلسوف سبينوزا "الشر لا يتوسع بقوة فاعله، بل بغياب من يمنعه» ..!!

قانون إعدام الأسرى ليس مجرد خطوة إضافية في سلسلة الانتهاكات، بل هو لحظة سقوط أخلاقي كامل، لحظة تختفي فيها الإنسانية من قاموس دولة، وتتحول العدالة إلى أداة قتل، ويُشرعن فيها الإعدام كأنه "إنجاز سياسي"، إنه ليس طعنًا لحقوق الإنسان فقط، بل طعنًا لفكرة الإنسان نفسها، وستبقى هذه الطعنة شاهدًا على انحطاط دولة، وعجز عالم، وصمود شعب يدفع أثمان الحرية في كل يوم، ولحظة إعلان رسميٍ بانهيار آخر ما تبقى من قناع قانوني كانت إسرائيل تختبئ خلفه منذ عقود.

خمس حروب في الانتخابات النصفية الأمريكية

مع كل يوم تقترب فيه الانتخابات النصفية الأمريكية، المقرّرة في الثالث من نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل، تتوضح أكثر فأكثر طبيعة الحروب التي تجري في وقت واحد، وتتداخل ساحاتها ونتائجها، فضمن السباق الانتخابي المحتدم، والذي يجري في ظروف غير اعتيادية، تبرز طبيعة الانقسامات الكبرى في الساحة السياسية، ابتداءً من الأزمات الداخلية المتعددة، وصولاً إلى المواقف المتباينة من الحرب الأخيرة ضد إيران، وكذلك الصراعات الدائرة بين ممثلي الاتجاهات الصناعية الكبرى حول مستقبل الاقتصاد الأمريكي، وبطبيعة الحال هناك قضايا حاضرة دائماً في كل انتخابات مثل قضية الهجرة، لكنها تأخذ مع هذه الانتخابات مستوى أعلى من الحدية بسبب الآليات المتشددة التي تبنتها إدارة ترامب، ومارستها بقوة من خلال سلطات إنفاذ القانون، والتي أثارت جدلاً واسعاً في بلد تأسس عبر موجات من الهجرة.

حسام ميرو

تتمثل الحرب الأولى في هذه الانتخابات بتحديد من سيحكم واشنطن، فالجمهوريون يدخلون الانتخابات وهم يدافعون عن قدرتهم على الاحتفاظ بالسلطة التشريعية في النصف الثاني من ولاية دونالد ترامب، بينما يسعى الديمقراطيون إلى تحويل الانتخابات إلى استفتاء على العامين الأولين من ولايته الثانية، وإلى استعادة واحد على الأقل من مجلسي الكونغرس.

لكن الأهمية الحقيقية لهذه الحرب لا تكمن في عدد المقاعد بقدر ما تكمن في السؤال عما إذا كان ترامب سيحكم خلال العامين الأخيرين من ولايته في ظل كونغرس متعاون معه، أم في ظل حكومة منقسمة، فخسارة الجمهوريين مجلس النواب ستفتح الباب أمام رقابة أشد على الإدارة، ولجان تحقيق ومواجهات حول الموازنة والإنفاق والسياسات الداخلية والخارجية، أما خسارة مجلس الشيوخ أيضاً، إذا حدثت، فستجعل المواجهة أوسع، خصوصاً في ملفات التعيينات والقضاء وعدد من أدوات السياسة الخارجية.

وكما في معظم الانتخابات الأمريكية، يبقى الاقتصاد العامل الأكثر التصاقاً بالسلوك الانتخابي، فالناخب الأمريكي لا يقيس الاقتصاد بالناتج المحلي الإجمالي، وإنما بمسائل ملموسة في حياته اليومية، من مثل الغذاء والسكن والطاقة والتأمين الصحي، وبقدرته على العثور على وظيفة والحفاظ على مستوى معيشته.

ومن هنا يخوض الجمهوريون والديمقراطيون حرباً على تفسير الوضع الاقتصادي، إذ يحاول ترامب والجمهوريون تقديم سياساتهم الضريبية والتجارية والحمائية باعتبارها مشروعاً لإعادة بناء القوة الصناعية الأمريكية وحماية الوظائف وتقليل اعتماد البلاد على الخارج، بينما يركز الديمقراطيون على كلفة المعيشة والآثار التي تتركها الرسوم الجمركية والسياسات المالية والحروب على المستهلك الأمريكي.

وفي داخل هذه الحرب، هناك مسألة مفصلية تتعلق بالشكل الذي ستكون عليه الرأسمالية الأمريكية خلال السنوات المقبلة، هل ستكون أكثر حمائية وقومية، أم ستكون أكثر انفتاحاً، وكيف سينعكس التنافس بين القوى الاقتصادية التقليدية، المتمثلة في قطاعي الطاقة والصناعات، وبين القوى الاقتصادية المتمثلة في التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، وهذه مسائل ليست داخلية محضة، فالرؤية الاقتصادية تحدد بدورها العلاقة مع الصين، والرسوم الجمركية، وسلاسل الإمداد، والعقوبات، وسياسة الطاقة، والإنفاق العسكري.

أما الحرب الثالثة، فتتمثل في الصراع على تعريف أمريكا نفسها، وهو ما تعكسه الانقسامات العميقة حول قضايا الهجرة والحدود والإجهاض والجريمة والتعليم والدين وقضايا النوع الاجتماعي وعلاقة الحكومة الفيدرالية بالولايات، فقد استطاع الرئيس ترامب أن يحول جانباً كبيراً من هذه التناقضات إلى مشروع سياسي تحت شعار «أمريكا أولاً»، وفي المقابل، يقدم الديمقراطيون تصوراً أكثر ليبرالية وتعددية للمجتمع والدولة.

أما الحرب الرابعة، فهي حرب الأجيال الأمريكية، حيث يبرز جيل أمريكي جديد من الناخبين الشباب الذين تكوّن وعيهم خارج أدوات الإعلام التقليدي، ولهم حساسيات مختلفة تجاه القضايا الداخلية والخارجية، وقد ظهر ذلك خلال الوقفات التضامنية التي أقامها الطلاب في الجامعات تضامناً مع الضحايا المدنيين في غزة، كما ظهر في فوز زهران ممداني، ذي الأصول الهندية المسلمة، بمنصب عمدة نيويورك، مدعوماً من جيل الشباب والإعلام الرقمي.

أما الحرب الخامسة، وربما الأكثر أهمية للمراقب الخارجي في الصين وأوروبا وروسيا والشرق الأوسط، فتتصل بطبيعة الوظيفة التي ينبغي للقوة الأمريكية أن تؤديها في النظام الدولي، وهي تدور بين ثلاثة اتجاهات، يرى الأول أن المصلحة الأمريكية تتحقق من خلال استمرار قيادة الولايات المتحدة لنظام من التحالفات والمؤسسات والقواعد الدولية، وأن كلفة هذه القيادة أقل من كلفة التخلي عنها وترك فراغ تملؤه الصين أو روسيا أو قوى أخرى، والثاني تمثله الترامبية، وهو لا ينكر ضرورة التفوق الأمريكي، لكنه يشكك في ضرورة أن تدفع واشنطن كلفة إدارة نظام يستفيد منه الآخرون.

ووفق هذا التصور، ليست مهمة القوة الأمريكية حماية النظام الدولي بقدر ما هي تعظيم المكاسب الأمريكية داخله، أما التصور الثالث، فيبحث عن انخراط أكثر انتقائية، يواءم بين الاحتفاظ بالتفوق العسكري والتكنولوجي وشبكة التحالفات، مع إعادة ترتيب الأولويات وتقليل الالتزامات في المناطق التي لا تعد حيوية بما يكفي، وتركيز الموارد على المنافسة الكبرى مع الصين.

خمس حروب تتقاطع للمرة الأولى في انتخابات أمريكية واحدة تجري في نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل، لا تجعلها مهمة فقط للجمهوريين والديمقراطيين وقاعدتيهما الانتخابيتين، وإنما محطّ أنظار كل القوى الفاعلة في النظام الدولي.

الأهمية الحقيقية لهذه الحرب لا تكمن في عدد المقاعد بقدر ما تكمن في السؤال عما إذا كان ترامب سيحكم خلال العامين الأخيرين من ولايته في ظل كونغرس متعاون معه

(قف)

ثقافة التسطيح وتسطيح العقول

فهد المضحكي

لعل المتتبع للواقع العربي المؤلم يلاحظ، انتكاسات عميقة في مختلف الميادين والمجالات. ففي وقت يواصل فيه العقل الغربي البحث عن أسباب الرقي والتطور لشعوبه بما يضمن لهم الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية يواصل العقل العربي انكساراته المتتالية. فلا نحن استطعنا إنتاج العقل البرهاني ولا العقل البياني ولا العقل العرفاني، كما تحدث عن ذلك مفكرون عرب كثيرون. هذا ما ذكره الكاتب من المغرب عبد الفتاح عزاوي في مقال قديم نشر على موقع "العربي الجديد". في هذا الصدد يقول: "لقد نجحت الأنظمة الشمولية في تجهيل شعوبها عن طريق احتكار سلطتي التعليم والإعلام، وتوجيههما وفق أهوائها وتوجهاتها المتناغمة مع إملاءات أطراف خارجية ووصفاتها».

يرى المفكر الأمريكي، نعوم تشومسكي، أن من أهم استراتيجيات التحكم في الشعوب إلهاء انتباه العامة عن القضايا والتغييرات الاجتماعية المهمة التي تحدّدها النخب السياسية والاقتصادية، من خلال تصدير كم كبير من الإلهاءات والمعلومات التافهة، ومنعها من الاطلاع والمعرفة الأساسية بمختلف مجالات العلوم والاقتصاد وعلم النفس البيولوجي. فضلًا عن أنه يجب أن تكون جودة التعليم المقدّم للطبقات الدنيا، رديئة بشكل يعمّق الفجوة بين تلك الطبقات والطبقات الراقية التي تمثّل صفوة المجتمع، ويصبح من المستحيل على تلك الطبقات الدنيا معرفة أسرار تلك الفجوة.

ووفقًا لكاتب المقال عبدالفتاح عزاوي، تكون محصلة هذه السياسات الممنهجة مزيدًا من تسطيح الفكر والتجهيل والتخلف على مختلف المستويات والأصعدة، وتفكيك البنى الاجتماعية بزرع بذور الفرقة الطائفية والتناحر بين أبناء الوطن الواحد.

لم تترك ثقافة التسطيح الفكري والثقافي مجالًا إلا وغزته، كالفطريات التي تنتشر وتتكاثر بسرعة فائقة، حيث أصبحنا نراها في البرامج التلفزيونية وفي حوارات من يتدبرون أمر تدبير الشأن العام، وفيما تعرض مواقع إلكترونية وصحف صفراء عديدة، وفيما يدلي به مثقفون ومحللون سياسيون واقتصاديون كثيرون، وكلّ من يرمز للسياسات الفاشلة.

لا يمكن محاربة ثقافة التسطيح من دون تغيير حقيقي في واقع منظومة التربية والتكوين، لتساير الواقع المعاش المتصف بالتغير والتطور المضطرد يومًا بعد يوم. لأن الاستثمار البشري وحده الكفيل بتحقيق مقومات التطور والازدهار وحجز مقعد مع الدول المتقدمة، ما عدا ذلك تصبح أوطاننا العربية سائرة في طريق التخلف.

حين تناولت الأكاديمية د. جمانة جاسم الأسدي ظاهرة تسطيح العقول في البيئة العربية أشارت إلى أن ظاهرة تسطيح العقول من التحديات الثقافية والفكرية التي تعاني منها العديد من المجتمعات المعاصرة، ولاسيما في البيئة العربية، ويقصد بتسطيح العقول عملية تفريغ الوعي من مضامينه النقدية والتحليلية، وتعويد الأفراد على استهلاك المعرفة السطحية والسريعة دون تدبّر أو فحص، هذه الظاهرة لا تنشأ فجأة، بل نتاج تراكمات اجتماعية، وسياسية، وتعليمية، وإعلامية تؤثر بشكل مباشر في بنية الوعي الجمعي، وتسطيح العقول هو تقليص قدرات الأفراد على التفكير النقدي والتحليلي، وتحويلهم إلى متلقين سلبيين للمعلومة دون مساءلتها أو التأمل فيها، إنه تغريب للفكر عن عمقه، وتحويل الإنسان إلى مستهلك للمعرفة السهلة، بدلًا من أن يكون منتجًا لها أو ناقدًا لها.

ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى كتاب "نظام التفاهة" للفيلسوف الكندي د. آلان دونو، الذي، بحسب ما كتبه د. مازن سليم خضور، وهو باحث وأكاديمي سوري متخصص في علم النفس الإعلامي، تحت عنوان "تسطيح العقول .. منظومة تتجاوز منصات التواصل"، تشير الفكرة المحورية للكتاب بأنّ البشرية تعيش مرحلة غير مسبوقة في تاريخها بعدما سيطر التافهون على جميع مفاصل الحياة، وتلازم مع هذه السيطرة وضع قواعد تتسم بالرداءة والانحطاط المعياري، تسببت في اختلالات في نظم الجودة والأداء، وتهميش لمنظومات القيم، وبروز للأذواق المنحطة، وخلو الساحة من التحديات، وأصبحت كل تلك الأزمات تصب في مصلحة الأسواق تحت شعارات من الديمقراطية والحرية الفردية التي أصابت معانيها الابتذال.

فالتسطيح يضرب بجذوره في المجتمعات بهدوء وإصرار، حتى أصبح الجسد الاجتماعي مصابًا بالفساد بصورة بنيوية، وتجلى ذلك في بعض مظاهر الحياة الإنسانية وهذا ما نشاهده في الظواهر الغريبة على وسائل التواصل الاجتماعي من خلال كسر كل المحركات والمقدسات بكل أنواعها، وخاصة الاجتماعية منها، والأمثلة كثيرة فيما نشاهده على منصات التواصل مخيف ويعطي مؤشرًا خطيرًا على الانحطاط والابتذال الذي وصلنا إليه، حتى أن بعض النخب وقعت في فخ هذه الوسائل بسبب الإغراءات والانجرار وراء رغبة في تحقيق (الأنا) التي تتيحها لهم تلك الوسائل من جهة أو بسبب العائدات المالية التي تأتي من خلالها – ولو على حساب المضمون – من جهة أخرى فكم من (نجم) شاهدناه على تلك المنصات بشكل لا يليق به وباسمه وبتاريخه باحثًا عن "الترند»!

الترند بالأصل مصطلح مالي يشير إلى اتجاهات السوق وحركة الأسهم صعودًا وهبوطًا وبناءً عليها يتم استخلاص النتائج واتخاذ القرارات، تم استخدام هذا المصطلح في مجالات أخرى لاسيما في السوشيال ميديا ويعني الموضوعات والقضايا الرائجة ومؤشرات الاهتمامات المشتركة التي يتناولها مستخدمو التطبيقات الاجتماعية، وغالبًا ما ينشغل الجمهور بمثل تلك القضايا والموضوعات ويتحدثون عنها في منشوراتهم مع أصدقائهم بصورة كبيرة.

حالات الإسفاف في المضمون – بحثًا عن ترند – أكثر من أن تعد أو تحصى لاسيما في اختراق خصوصيات المنازل وتشويه قيم المجتمع، وبالأخص قيم الأسرة، فبتنا نشاهد تحدي التعري أو تبادل الأحاديث الجنسية وغيرها من التحديات في ظاهرة لا توجد تسمية تلخصها إلا "الدعارة الإلكترونية».

ومن جانب آخر هناك أيضًا جانب يشكل خطرًا كبيرًا على حياة الأفراد والأمثلة كثيرة، فعلى سبيل المثال هناك تحدي "القفز من القوارب" حيث ظهر أشخاص يقفزون في البحر من على قوارب متحركة وكانت النتيجة لدى البعض مأساوية. فيما رُفعت دعوى قضائية ضد تيك توك في كاليفورنيا نتيجة وفاة طفلتين شاركتا في تحدي التعتيم (بلاك أوت تشالنج)، الذي يشجّع المستخدم على خنق نفسه حتى الإغماء حيث يقوم الشخص بحبس الأنفاس حتى فقدان الوعي! فيما سجلت وفاة عدد من الأطفال في إيطاليا وأستراليا ودول أخرى اعتبرت مرتبطة بتحدي التعتيم.

ختامًا في ظل السيطرة المخيفة لتكنولوجيا المعلومات ومواقع التواصل الاجتماعي بتنا فعلًا أمام تعويم ما تحدث عنه كتاب "نظام التفاهة" وما انتهى به الكتاب من أن السبيل للإطاحة بنظام التفاهة لا يمكن أن يتم إلا بكيفية جماعية أو ما يصفه بـ "القطيعة الجمعية" مع ما يستلزمه ذلك من طرق تفكير إبداعية لإنهاء وجود المؤسسات والقواعد التي تضر بالصالح العام .. ينتقد المؤلف بروتوكولات المجاملات الاجتماعية ويستغرب من جعل دور وسائل التواصل منابر يعتليها التافهون لتحسين صورتهم والبحث عن تافهين آخرين يتفقون على لعب الدور في نظام التفاهة.

محدوديّة الاختيار واتّساع الحرية!

حسين الربيع

الزمن بأحواله وظروفه ينحت الإنسان نحتاً مثلما يفعل الفنان في قطعته الطينية

نحن البشر لسنا صنيعة اختياراتنا وحدها.. نحن ذلك الكيان الذي تتقاطع فيه حدود القدر مع مساحة الحرية والاختيار

أنت صنيعة اختياراتك!

أنت صنيعة اختياراتك نعم ... ولا، لن أقول لك نعم مثلما يفعل روّاد الثقافة الاستهلاكية، بحيث يضعونك أمام ثقل المنظومة غير العادلة على مستوى القيم وتوزيع الثروات وتحت ضغط استثنائي يحمّلك كل ما يحدث لك وللعالم، ثم يملؤون عقلك بالمقارَنات التي تزيدك إحساساً بالاحباط والفشل.

إن خيارات الإنسان التي ترسم مصيرَهُ في هذه الحياة محدودة، لا أقول معدومة بل محدودة جداً، يمكن أن نقول بأنّ الإنسان مُنقادٌ أو خاضعٌ للضرورة بنسبة تصل إلى حدود التسعين بالمئة والعشرة الباقية هي لحريّة الاختيارات. قد يقول قائلٌ كيف ذلك والإنسان كائن عاقل يمكنه تحديد خياراته إذا ما ملك الإرادة! هذا القول في ظنّي يحتوي على جانب من الصحة ليس بالقليل، بالإرادة يستطيع الانسان أن يغير الكثيرَ من الأمور الحاسمة في واقعه، ولكن النسبة الأكبر تعود الى الضرورات أي: الظروف والوقائع والبيئة.

هل يمتلك الانسان اختيار ظروف بيئته التي ترعرع فيها؟ هل يمكنه اختيار ظروف الكوارث الطبيعية مثل فيضان النيبال؟ أو الأوبئة والأمراض مثل جائحة كورونا؟ أو الحروب التي تحدّث عنها الفلاسفة كثيراً، حتى أن تولستوي في رواية (الحرب والسلم) خلُصَ الى أن الإنسان هو مجرد محرّك لها بينما وقودها يكمن في حركة التاريخ، والتدافع الاجتماعيّ والعمراني، والعصبيات المنفلتة، والقهر المستمر، بحيث تصل جميع تلك التراكمات الى الذروة فتشتعل الحرب، لاحقاً يأتي دور الإنسان المباشر في تأجيج الموقف!

الزمن بأحواله وظروفه ينحت الإنسان نحتاً مثلما يفعل الفنان في قطعته الطينية بل وحتى الرخامية على صلابتها وكلما زاد صقله لها زادت لمعاناً كذلك يفعل الزمن ليرينا معادن البشر.

الأربعون سِنّ الحكمة

وأنا أدخل الآن سنّ الأربعين، وهو بالمناسبة يعتبر سنُّ الحكمة والنبوة والنضج في التراث، فنبينا محمد (ص) بُلّغَ بالرسالة في هذا السن، وهناك الكثير من الفلاسفة والحكماء والمستنيرين بدأوا مرحلة النضج المعرفي من هذا السن وارتبط الأربعون بتجربتهم الفكرية والروحية، مثل أرسطو وبوذا والرومي وغيرهم كثر. أما بالنسبة لي فقد بدأت الآن أعي محدودية اختياراتي وأن أسلّمَ بالأقدار، فهناك إرادة الله ومشيئته فوق كل شيء، ثم ظروف الحياة المعاشة والوقائع، ثم تأتي اختياراتي الشخصية أخيراً وبنسبة ضئيلة في تحديد مصيري ومساري في هذه الحياة.

ثمة أمور كثيرة حصلت لي، أقف أمامها اليوم وأتساءل كيف حصل ذلك من دون اختيار مني ومن دون تخطيط مسبق! أنت ياصديقي صنيعة المشيئة الإلهية، والواقع البيئي، والظرف الزماني، ثم أنت بجزء محدد صنيعة اختياراتك، ثق بشخص دخل بوابة الأربعين، واعلم أنك متى اعتقدت بهذه الفكرة ستشعَر بالراحة والكفاية والسلام الداخلي، وستكون راضياً بما أنجزت، مقدِّراً لذاتك، وسوف تتقبل الفشل بنفسٍ أكثر اطمئناناً، وستسعى للنجاح بإرادة عالية.

إذا طمحت يوماً أن تنعم بسلام نفسي لاتنظر الى ماعند غيرك، لا تقارن نفسك بالآخرين، ولا تقارَن الآخرين بنفسك، تمنى الخير لغيرك ولنفسك، اقنع بما لديك وحاول أن تزيد بقدر ما أمكن بإرادتك وجهد كفيّك، ولاتمدّ يدك وعينك على حقوق غيرك...

تصوّر أنك نقطةٌ تقف الآن رافعاً يديك في صحن منزلك، منزلك نقطة في المدينة التي هي نقطة في هذا البلد الذي هو نقطة في محيطه الإقليمي الذي هو نقطة في كوكب الأرض الذي هو نقطة في المنظومة الشمسية...ومع ذلك، فإنّ الذرّةَ في هذا الكون لها أثر عظيم.

في رواية (التائهون) يذكر أمين معلوف فقرةً باتت تلخّص طريقتي في الاختيار، وقد فرحت لبعض القرارات لأنها كانت سليمة وندمت للخاطئة، والندم لا يكون قاسياً في الغالب لأن جانب الاختيار المخصص لي يكون مقروءاً بشكل أو بآخر والرؤية الكونية أيضاً تكون حاضرةً في الذهن، وإنني بعدما أدركت محدودية سيطرتي على النتائج، أصبحتُ ربما أكثر قبولاً لاتّخاذ القرار ثم القبول أو التكيّف بما يترتب عليه، يقول معلوف: «أثق عادةً باندفاعي لا لأنه لا يخطئ، بل لأني لاحظت على مرّ السنين، أني كنت أخطئ في الأغلب حين أطيل التفكير، وأحاول أن آخذ المسببات والنتائج في الحسبان، أو الأسوأ من ذلك، حين كنت أستعرض في ذهني، في عمودين متناظرين، الحجج المؤيدة والحجج المعارضة... كم من مرة اتخذت قرارات مفجعة لأسباب وجيهة! أو على العكس، أفضل القرارات كانت رغم أنف المنطق السوي! فتوصلت إلى القول إنه من الأفضل أن أقرر أولاً، في لمح البصر، ثم أخوض بأناة وروية في قرارة نفسي لأفهم هذا الخيار.» 44

مساحة الحرية والاختيار

والعُشر الذي تصورناه في البداية لصالح حرية الاختيار هو في الواقع البشري ليس نسبةً ضئيلةً ولكنه ينبّه الإنسان لمحدوديّته. الاختيار المحدود كبير في محدوديته، بل إن كينونة الإنسان تَترسخ فيه حيث يمكن للإنسان أن يَختار بحرية بين مفاهيم كبرى مثل الخير والشر، الحق والباطل، الفضيلة والرذيلة، التضحية والخنوع، الصبر والعجز... – وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ – (البلد: 10). هنا يتربّع الإنسان على عرش الحريّة، وتحدِّد اختياراته جزءاً ليس بيسير من مصيره ومسيره في هذه الحياة، هنا في هذا المربع حدَّدَ الإنسان لنفسه فكرة الخلود وأبدع فيها منذ أن وعي نفسهُ ووجوده، «وكم من بَقيّاتٍ تفوق أصولها** تخبِّرُكَ المنحوتة الحجريّة» / تميم.

هذه الحريّةُ الخالصةُ تضع الإنسان أمام محَكِّ الاختيار ليعمل على تفعيل دوره ككائن عاقل ذي ضمير وعاطفة ومشاعر، يعي ذاتهُ ومسؤولياتهُ في هذا العالَم، هنا يمكّن أن يرى خياراته وعلى ضوئها يكون السلوك الأخلاقي البشري إنسانياً أو شيطانياً، أيّة نفس تتنازعُهُ حتى اختار ما اختار. هنا حيث يتكامل الإنسان بحُرِّيّته الأخلاقية ومحدوديّة اختياراته مع القدَر الذي رسمتهُ له الحياة بكامل ظروفها ومنعطفاتها وتحولاتها، «كل حال يدوم زمانيْن لا يُعوّل عليه» / ابن عربي. لسنا نحن البشر صَنيعة اختياراتنا وحدها ولسنا أسرى لما لم نختره تماماً؛ نحن ذلك الكيان الذي تتقاطع فيه حدود القدَر مع مساحة الحرية والاختيار.

وجهان لتحركات الجيل Z

تكاد الأضواء المُوجهة إلى التحرّكات الاحتجاجية للجيل المعروف بجيل Z أن تصرف الأنظار عن أجيال أخرى، وخصوصاً الجيلين السابقين له، حيث يوصف الأول بجيل X، والثاني بجيل Y.

ويقصد بالأول الجيل الذي ولد بين بداية الستينيات ونهاية السبعينيات من القرن الماضي، فعاش بدايات ظهور العولمة وارتفاع أسعار الطاقة، ولا سيما النفط، أو ما عُرف، في مجتمعاتنا، "الطفرة النفطية". أما الجيل Y فيقصد به من ولدوا بين ١٩٨١ و١٩٩٦، ويعدّون الجيل الأول من أبناء العالم الرقمي، ولدوا بعد نهاية الحرب الباردة، وواكبوا الثورة المعلوماتية.

يوصف الجيل الأول، جيل X، بالمُهمل، لأنّ المنتمين إليه ولدوا بين جيلين صاخبين عُرفا بالتمرّد، جيل المولودين بعيد الحرب العالمية الثانية، و"جيل الألفية" الذين تميّزوا بنشأتهم في عصر الإنترنت السريع، فلا هو يشبه الجيل السابق له، الذي انخرط أبناؤه وبناته في التحرّكات الطلابية والشبابية الشهيرة في ستينيات القرن العشرين، وارتبطت بأسماء كبيرة في دنيا الفكر والفلسفة والثقافة، ولا هو يشبه الجيل التالي له الذي تشكّل وعيه مع بدايات الثورة الرقمية. وعلى الرغم من قسوة الظروف التي عاشها جيل X وتجاهله من وسائل الإعلام، ينبغي عدم إغفال الدور الذي لعبه في رحلة التغيير التي يشهدها عالمنا.

تذهب التقديرات إلى أنّ أبناء الجيل Z هم من ولدوا ما بين عامي 1997 و2013، وهي المرحلة التي ساد فيها العالم الرقمي وتطبيقاته في المجتمع، فنشأوا على استخدامها بمهارة فائقة، تحسُدهم عليها الأجيال السابقة.

في الاحتجاجات الطلابية والشبابية التي شهدتها بعض البلدان العربية والأفريقية في الأشهر الماضية، وكان عمادها أبناء هذا الجيل وبناته، طُرحت قضايا مفصلية تتصل بقيم العدالة الاجتماعية والمساواة، ورفض التمييز، وتحسين جودة التعليم المتردي، وتأمين فرص العمل للشباب، والدعوة إلى شفافية المؤسّسات وكسر السرديات التقليدية، واعتمدت تحرّكاتهم على أدوات غير مألوفة للأجيال السابقة، بدا فيها التأثير الرقمي الواسع كأسلوب ضغط ثقافي، وبناء حملات لحظية بدلاً من حركات طويلة الأمد، وهي أدوات أظهرت فعاليتها بالتأكيد. لكن السؤال يبقى عمّا إذا كانت هذه الأدوات السريعة قادرة على أن تتحول إلى بناء مؤسسي يُعوّل عليه.

يبرز هذا السؤال بشكل أقوى وأكبر مع محاولة المنخرطين في هذه التحرّكاتً إبقاءها مستقلة عن تأثير الأحزاب والقوى السياسية في بلدانهم، بما فيها المعارضة لأنظمة الحكم في تلك البلدان، والإيحاء أنّ التحرّكات تخصّهم وحدهم، كما لو أنّ المطالب التي طرحوها في احتجاجاتهم، معيشية كانت أو سياسية، خاصة بهم، وكأنّ حل ما يواجهونه من مظالم يمكن أن يأتي بمعزل عن الحلول الشاملة للمشكلات التي تعاني منها مجتمعاتهم. فحتى لو كان جيلهم هو الأكثر معاناة، فإنّها تبقى وجهاً من أوجه المعاناة الشاملة التي تعاني منها كل الطبقات الاجتماعية العاملة والمُضطهدة، والمتسبب فيها من يستحوذون على الثروة والسلطة.

تعيد هذه المسألة بالذات إلى الأذهان سجالاً أثارته في وقتها الانتفاضات الطلابية في عام 1968 في أوروبا، وفرنسا خصوصاً، عما وُصف بـ"صراع الأجيال"، حيث أخرج التمرّد من دائرة مواجهة مواقع الفساد والاستغلال واحتكار السلطة، لتصويره مجرّد صراع بين جيل جديد مختلف وأجيال سابقة، ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنّها، رغم الحيوية التي أضفتها تلك التحركات، سياسياً وثقافياً، في لحظتها، لكنّها، في المحصلة، لم تحقق الأهداف التي طالبت بها.

لا نقلل أبداً من الفروق الجوهرية بين الأجيال، التي ازدادت تجلياتها، مع الثورة الرقمية غير المسبوقة، بما لا يُقاس بالمراحل السابقة، ونشوء متطلبات جديدة لجيل اليوم لم تعهدها الأجيال الأسبق، ولا نغفل أبداً عن عجز القوى السياسية الفاعلة، أو التي كانت فاعلة، في استقطاب الشباب إلى النشاط الحزبي والنقابي المنظم، وتراجع ثقة الشباب بهذه الأحزاب. ولكن يتعين ملاحظة أنّ منظومة القيم القوية التي يتبنّاها الجيل Z لم تتحول، بعد، إلى برامج تغيير مفصّلة. ومع أنّ تحرّكات هذا الجيل نتاج وضع سياسي واقتصادي واجتماعي مأزوم بأفقٍ مسدود، لكنّها، حتى اللحظة، تحرّكات قصيرة المدى، شديدة العاطفة، وغير جاهزة للدخول في تعقيدات السياسة اليومية.

في كلمات موجزات، لكي تعطي الرؤية النبيلة للجيل الجديد أُكلها، تلزمها بنية تنظيمية وفكرية تحوّلها إلى مشروع طويل النفس.

حـــريـــة الاعـــلام فـــي الـــدولة الأمـــريكيـــة البلـــوتـــوقـــراطيـــة

أمريكا أسسها الأثرياء. وظلّت خاضعة لحكم أقلية من كبار أثريائها الفاحشين، منذ قيامها في ١٧٧٦، حتى اليوم، حيث يتربع على سدة الحكم فيها أحد كبار نخبتها الثرية الذي دخل السياسة من بوابة البزنس والاثراء الذي تؤمنه مؤسسة الحكم لحفنة منتخبة من علية القوم في قطاعات المال والأعمال؛ وهو هنا دونالد ترامب. دعك من نعوت الديمقراطية والليبرالية التي تخلعها نخبتها الثرية الحاكمة (على ضفتي السلطة، التنفيذية والتشريعية)، على نفسها، سواءً على ألسنة أعضاء هذه السلطة الذين لا يملون من لوك كلماتها برطانة قشيبة، أو على ألسنة وأقلام جحافل العاملين المأجورين في وسائط الميديا الدعائية السائدة (أو الموالية).

د. محمد الصياد

الثروة والنفوذ السياسي في أميركا متداخلان في صناعة القرار، من «الآباء المؤسسين» إلى نخبة المال المعاصرة

أمريكا في حقيقتها السطحية والعميقة – كما هو تاريخها منذ قيامها – هي بحسب أحد المصطلحات الذائعة، "بلوتوقراطية» (Plutocracy). مصطلح استُخدم لأول مرة في عام 1631 للدلالة على دولة تكون فيها الطبقة الحاكمة فاحشة الثراء، وتكون فيه درجة التفاوت الاقتصادي مرتفعة، بينما يكون مستوى الحراك الاجتماعي فيها خفيضًا.

وفي التاريخ، أن بعض كبار الساسة والمفكرين العالميين، مثل المؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي في القرن التاسع عشر أليكسيس دو توكيفيلي، والمفكر السياسي الاسباني المناصر للمَلَكية في القرن التاسع عشر جوان دونوسو كورتيز، والمفكر الأمريكي المعاصر نعوم تشومسكي، أدانو بشدة "البلوتوقراطيين"، لعدم اكتراثهم بالغالبية الساحقة من مجتمعاتهم، واستخدام نفوذهم ومصادر قوتهم لخدمة أهدافهم ومصالحهم، ومن ثم التسبب في زيادة الفقر وتأصيل الصراع الطبقي، وافساد المجتمعات بالجشع والانغماس في المتع والملذات.

«ألاباء المؤسسون» أصحاب مزارع ورجال أعمال أثرياء من أُطلق عليهم "الآباء المؤسسون"، لم يكونوا سوى مجموعة من أصحاب المزارع ورجال الأعمال الأثرياء الذين قادوا التمرد ضد الحكم البريطاني الاستعماري ونجحوا في توحيد 13 مستعمرة. ويُنسب لأحد المؤرخين الأمريكيين، قوله أن السبب الرئيسي وراء ثورتهم على المستعمرين البريطانيين، كان السعي لزيادة غلتهم من المال، وليس الحرية السياسية. فقد كان المستعمرون الانجليز يمارسون المذهب الميركانتيلي/ التجاري الذي لم يكن يسمح للمستعمرات أن تتاجر قانونيا إلا مع بريطانيا فقط. وكان محظورًا عليها المتاجرة مع الدول الأخرى وكذلك مع سكان أمريكا الأصليين من قبائل الهنود الحمر. فكان أن سعى المؤسسون لاقتناص هذا الامتياز لأنفسهم، فقد كان نصفهم من أصحاب المزارع، وثلثهم من المضاربين في الأراضي.

جورج واشنطن (George Washington، 1732–1799)، أول رئيس أمريكي (انتُخب في 1789)، كان اقطاعيا كبيرًا، يملك مزارع ضخمة في فرجينيا ويمتلك مئات العبيد. وقد استاء من الضرائب والقيود المختلفة التي فرضها التاج البريطاني على المستعمرات. لهذا شارك العديد من هؤلاء المؤسسين في الثورة ضد الانجليز بهدف منع الغاء العبودية، حيث كانت انجلترا قد ألغت العبودية في امبراطوريتها تحت ضغط حركة قوية نادت بالغائها. جمع جورج واشنطن مساحات شاسعة من الأراضي زادت على 50،000 فدان عند وفاته، من خلال المضاربة في الأراضي الحدودية التي مسحها. واختار الزواج من أغنى الأرامل في فرجينيا، وقام بالتوسع في زراعة المحاصيل الزراعية في اقطاعياتهما (هو وزوجته) في ماونت فيرنون، وتحول من من زراعة التبغ إلى زراعة القمح، وأنشأ معملا لتقطير الويسكي، ما عظّم من ثروته.

ألكسندر هاملتون (Alexander Hamilton، 1755 or 1757–1804)، وهو أحد أولئك المؤسسين، لم يتردد لحظة في استغلال منصبه كأول وزير خزانة في أمريكا، لإصدار أمر للحكومة الفيدرالية الجديدة بسداد ديون جميع الأثرياء في الولايات المتحدة. وشمل ذلك نفسه ومعظم المؤسسين الآخرين. وهو ما زاد من ثرواتهم بشكل كبير.

بنيامين فرانكلين (Benjamin Franklin، 1706–1790)، نجل صاحب صناعة الصابون، كان رجل أعمال ومضارب في الأراضي. جمع ثروته بطرق لا حصر لها. فإلى جانب عمله المزدهر في طباعة كل شيء من الكتب إلى الخطب إلى العملات، فقد استثمر أيضا في 89 عقارا خصصهم للإيجار في مدينته فيلادلفيا، وفي المضاربة على الأراضي في الغرب الأمريكي. وقبل الثورة على الانجليز، كان فرانكلين واحدًا من أغنى أثرياء العالم.

يتبع

من الصحافة الصفراء التي مهّدت للحروب والتوسّع الأمريكي إلى تغطية حرب العراق وتبرير سياسات المال المعاصرة

الإعلام السائد بين استقلال الصحافة وهيمنة رأس المال، من انتقادات جون بيلجر إلى قضية ويكيليكس وجوليان أسانج

جون هانكوك (John Hancock، 1736–1793)، الذي عاش مع عمه التاجر في بوسطن، تخصص بعد تخرجه من هارفارد في أعمال الاستيراد والتصدير التي كانت تديرها عائلته، ووسعها لتشمل بناء السفن التي تحمل زيت الحيتان إلى بريطانيا وتعود محملة بالسلع الاستهلاكية لسلسلة متاجر التجزئة الخاصة به.

توماس جيفرسون (Thomas Jefferson، 1743–1826)، هو الآخر تزوج من ابنة تاجر رقيق ثري.

لقد كان معظم "الأباء المؤسسين"، أغنياء من قبل أن يقرروا التمرد على الدكتاتورية الاقتصادية للمستعمر البريطاني.

كان المؤسسون الجنوبيون مرتبطين ببريطانيا باعتبارها سوقًا لتبغهم، وكانوا مديونون للوسطاء البريطانيين الذين كانو يسوّقون تبغهم هناك، والذين استوفوا أوامر الشراء الخاصة بهم. وكان النبيذ الذي يستهلكونه والأثاث والصيني والأواني الزجاجية، كلها تأتي من بريطانيا.

بحسب "Wall St 7/24."، وهي شركة أمريكية أُنشئت في 2006، مقرها ولاية ديلاوير تعمل في مجال الأخبار والآراء المالية وتنتج محتوى لعدة مواقع اخبارية، منها "MarketWatch"، و"DailyFinance"، و"Yahoo! Finance"، و"TheStreet.com" – فقد بلغت تقديرات ثروة جون آدامز (John Adams، 1735–1826)، وهو ثاني رؤساء أمريكا، 21.5 مليون دولار بأسعار اليوم. كما أن زوجته أبيجيل آدامز، تنتمي لعائلة ثرية من ماساتشوستس.

بينما قدرت صافي ثروة جيفرسون الناتجة عن وراثته لاقطاعيات من والده جون جاي، بـ 239.7 مليون دولار بالأسعار الحالية. وبحسب مؤشر سجلات العبودية في نيويورك "New York Slavery Records Index" (مجموعة من السجلات تحدد هوية الأشخاص المستعبدين وأصحابهم، بدءًا من عام 1525 وانتهاءً بالحرب الأهلية، أنشأته كلية جون جاي للعدالة الجنائية)، كان جاي يمتلك العديد من العبيد.

كما أن والده وجدّه استثمرا في تجارة الرقيق. وقد كان جده يمتلك 11 سفينة، نقل فيها 108 من العبيد، بينما نقل والده في السفن السبع التي امتلكها، 46 عبداً.

وبحسب نفس المصدر (Wall St 7/24)، فقد بلغ صافي ثروة "الأب المؤسس" جيمس مونرو (James Monroe، 1758–1831)، نحو 30.7 مليون دولار بسعر الصرف السائد للدولار في الوقت الراهن، وإن زوجته كانت من عائلة ثرية، والدها كان أحد القراصنة الأثرياء.

وجمع هذا "الأب المؤسس" ثروته من مزرعته المسماة هايلاند. ووفقًا لموقع المتحف على شبكة الإنترنت لمنزل هايلاند، فقد استعبد مونرو ما يصل إلى 250 شخصًا.

رسم للفنان الأميركي آرت يونغ يعود إلى العام ١٩١٢

«بروبوغاندا» النخبة الحاكمة

لهذا، حين يناظر الباحث هذه الوقائع التي لا يقاربها تيار الاعلام الغربي التابع أو السائد (Main stream media – MSM)، يصبح من الصعب عليه فهم اسباغ مختلف أجهزة البروبوغاندا التابعة للنخبة الأمريكية الحاكمة، صفة "الآباء المؤسسين" على تلك الثلة من الرجال التي تضررت تجارتها في التبغ والرقيق والمنتجات الزراعية، تصديرًا وتوريدًا في الدولة البريطانية التي كانت تسيطر على الأراضي الأمريكية، فتمردت على مستعمرها.

كيف للاعلام السائد أن يتحدث بسوء عن أسياده وأولياء نعمته، وهو الذي لا يعدو أن يكون ترسًا صغيرًا – على أهميته الاستثنائية – في الماكنة الضخمة للدولة البلوتوقراطية التي أنشأها وصممها وشكّلها "الآباء المؤسسون" على مقاس مصالحهم ومطامعهم، ومصالح ومطامع طبقة الأثرياء التي توالت على وراثة السلطة والثروة في الدولة الأمريكية التي أشادوها.

يُعد الكاتب والصحافي وصانع الأفلام الوثائقية الأسترالي، جون ريتشارد بيلجر (John Richard Pilger)، الحائز على جائزة إيمي، أحد أكبر الأسماء اللامعة في الصحافة الاستقصائية (Investigative journalism)، وأبرز صناع الأفلام السياسية في القرنين العشرين والحادي والعشرين، تناول فيها نضال الشعب الفيتنامي وحرب التحرير التي خاضها ضد الاحتلال الأمريكي، ونضال الشعب الفلسطيني ضد الغزاة والمحتلين الصهاينة، وتهديدات ومخاطر الحرب النووية. وكلها أعمال ناقدة بمرارة للإعلام الغربي وكاشفة لابتذاله وانحيازاته الامبريالية الفاضحة.

يتبع

في 18 يناير 2018، أجرى الناشط والاعلامي والممثل الكوميدي الأمريكي راندولف أ. كريديكو (Randolph A. Credico)، والكاتب الصحافي الأمريكي المعروف دينيس جيه بيرنشتاين "Dennis J. Bernstein" (تم اختياره من قبل "Pulse Media" كواحد من أفضل 20 شخصية إعلامية عالمية لعام 2009) – أجريا لقاءً مع جون ريتشارد بيلجر، دار حول بعض القضايا الملحة في ذلك الوقت، لاسيما الإخفاقات المتعددة للقائمين على الصحافة التجارية الولائية، في تأجيج نار فضيحة روسيا جيت الزائفة، وتجاهلهم للهجمة الارهابية الفاضحة التي تعرض لها جوليان أسانج من قبل الحكومات الغربية، متصرفين كمدعين عامين أكثر منهم كصحفيين، تقع على عاتقهم مسؤولية مراقبة مراكز السلطة ونقل المعلومات إلى الشعب.

وقد نقل الصحفيان في المقابلة عن بيلجر قوله: "لقد تغير شيء ما. فرغم أن الإعلام كان دائما امتدادا فضفاضا لسلطة رأس المال، إلا أنه أصبح الآن شبه مندمج تماما معها. فالمعارضة، التي كانت مقبولة في الإعلام السائد، تراجعت الآن إلى حالة من الاحتقان المجازي مع توجه الرأسمالية الليبرالية نحو شكل من أشكال ديكتاتورية الشركات. ويزداد الأمر سوءا بمعدل هائل، لقد تحمل جوليان أسانج (Julian Assange) شخصيا وطأة هذا التحول التاريخي. فلقد كشف هو وويكيليكس الكثير، وهذا أمر لا يُغتفر. لا شك أن ما فعلته ويكيليكس هو أهم عمل لصحافة الكشف في حياتي. في جميع أنحاء العالم، انكشف سياسيون دأبوا على خداع الجمهور بسبب ما كشفته ويكيليكس. إنه إنجازٌ عظيم. لذلك وُجّه الغضب إلى جوليان من قِبل أشخاص في وسائل الإعلام، ممن أحرجتهم وفَضحتهم ويكيليكس. لأن ويكيليكس قامت بالعمل الذي كان ينبغي للصحفيين القيام به لسنوات عديدة. لقد فعلت ويكيليكس ذلك على نطاق واسع، وفضحت أولئك الذين يتقاضون أجرا للحفاظ على دقة السجلات. وهذه هي جريمة أسانج. ولطالما كانت شبكتا CNN وNBC وبقية الشبكات، صوت السلطة الصادح والفاقع، وكانت مصدرًا للأخبار المشوهة والمضللة. هؤلاء الأشخاص المتسلطون في التيار الاعلامي السائد، كانوا وسيبقون امتدادًا للسلطة التي أفسدت جزءًا كبيرًا من كياننا السياسي. وكانوا، وسيظلون مصدرًا للعديد من الأساطير».

الصحافة الصفراء

عمر الصحافة الملوَّثة (والملوِّثة) في أمريكا من عمر الدهاليز الافعوانية لبنيان الدولة التي أشادها «الآباء المؤسسون». الى ما قبل الحرب الإسبانية الأمريكية عام 1898، بسنوات، كان توصيف الصحافة الصفراء قد شاع استخدامه بسبب موالاتها للدولة التي زينت نفسها بيافطة الديمقراطية كمقاربة «حضارية غربية»، في حين أنها شرعت منذ ذلك الوقت لتبرير

بريشة الفنان الأميركي آرت يونغ يعود إلى العام ١٩١٢

وتغذية الطموحات التوسعية للطبقة الأمريكية الحاكمة في غزو واحتلال كوبا والفلبين الخاضعتين في ذلك الوقت للاستعمار الاسباني. حيث شنت حملة ركزت على اظهار الجوانب المأساوية للحكم الاسباني في البلدين. وكانت الصحافة الصفراء قد أوقدت النار وسوقت للجدوى الاقتصادية والاستراتيجية لخطاب الحرب الذي أطلقه صقور طغاة أمريكا الصاعدون ومنهم تيدي روزفلت وزير البحرية في الحكومة الأمريكية آنذاك. شُنت الحرب على اسبانيا في كوبا في 1898، وألحقت الهزيمة بها واحتل الأمريكيون كوبا. كما احتلوا الفلبين في نفس العام.

كان الاعلام الأمريكي الدعائي حاضرًا ومواكبا على الدوام للطموحات الامبريالية الأمريكية التوسعية. فقد دعم الغزو الأمريكي للعراق عام 2003، تماما مثلما دعم حرب غزو واحتلال كوبا سنة 1898. ومثلما شُنت الحرب لاحتلال كوبا والفلبين بذرائع كاذبة، كذلك هو الحال بالنسبة للحرب العدوانية ضد العراق. كان الرئيس جورج دبليو بوش وحاشيته مهووسون بترداد الأكاذيب عن علاقة الرئيس العراقي صدام حسين بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، واطلاق شائعة تطوير العراق للأسلحة النووية. وقد سارت وسائل الإعلام الأمريكية في هذا الاتجاه دون تردد أو حتى اثارة بعض الأسئلة؛ مبررة موقفها بالدفع بفرضية أن الإدارة الأمريكية على دراية بما تفعله. وشُنت الحرب وتم اسقاط نظام صدام حسين وحزبه الحاكم. وارتكبت القوات الأمريكية والبريطانية الغازية على الفور مذبحة دموية راح ضحيتها أكثر من نصف مليون عراقي، ونفذت فرق الموت المسلحة المدعومة من قوات الاحتلال الأمريكية، عملية تطهير دموية ضد أعضاء حزب البعث العراقي الحاكم، لم توفر لا المعلمين ولا حتى الموظفين الحكوميين. المثير، أنه سرعان ما اتضح زيف ادعاء الرئيس بوش بشأن الأسلحة النووية في العراق. كما اتضح في النهاية أن نظام الاحتلال الأمريكي فشل في إعادة هيكلة العراق ليصبح «شريكا مستقرًا مواليًا لأمريكا»، حسبما ذهبت سردية الاعلام الأمريكي الموالي. فقط بعد هذه الفضيحة الكبرى، بدأت وسائل الإعلام الأمريكية، محاولة مدارة مشاركتها في الجريمة بعد وقوف الرأي العام على حقيقتها، فاختارت تنفيس حماستها لهذه المغامرة الفاشلة ومحاولة كنس قاذوراتها.

أودو كونستانتين أولفكوت (Udo Konstantin Ulfkotte، January 13–1960 January 20 2017)، صحفي وكاتب ألماني عمل في صحيفة فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج (Frankfurter Allgemeine Zeitung) اليومية الألمانية من عام 1986 حتى عام 2003. ومنذ نهاية التسعينيات، نشر العديد من الكتب التي كرسها للدفاع المتهالك عن المواقف الشعبوية اليمينية والإسلاموفوبيا وتسفيه وقائع جرائم الامبرياليين ووصفها بنظريات المؤامرة. وإذا كان من أثر طيب تركه هذا الصحافي المرتزق قبل وفاته، فهو اعترافه بأن الصحفيين، بمن فيهم هو نفسه، والصحف الغربية "الرائدة"، نشروا موادا تم إطعامها لهم، أو شراؤها، من قبل وكالة المخابرات المركزية وغيرها من وكالات الاستخبارات والدعاية الغربية.

ابـن سينـا أو الطـريـق إلـى أصفهـان

ما إن قرأت رواية «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان» لجيلبرت سينويه حتى هممت بشراء كامل أعماله لجمال السرد وأناقة الأسلوب والمحتوى الراقي. ومن رواياته: «ابنة النيل»، «المصرية»، «الفرعون الأخير محمد علي»، «الملكة المصلوبة»، «يريـ#ـان»، «ترابيع القمر الخمسة»، «الصقر»، «صرخة الحجارة»، «أيام وليالي»، «أنا القدس».

الرواية التي نحن بصددها تقع في 479 صفحة من الحجم المتوسط، ترجمها إلى العربية آدم فتحي، وصدرت طبعتها الأولى عن منشورات دار الجمل في عام 1999.

هذه الرواية الثانية التي أقرأها عن ابن سينا، حيث كانت الأولى ليوسف زيدان – فردقان: اعتقال الشيخ الرئيس»، وكلا الروايتين جميلتان، لكن ما قرأته من رواية سينويه ضاعف إعجابي بما أورده من معلومات عن ابن سينا، تفوّق كثيرًا ما أتى به يوسف زيدان، حتى تكاد رواية زيدان تكون ملخصًا لهذه الرواية.

المهم في الأمر أن الراوي، أي جلبيرت سينويه، يتكلم بلسان أبي عبيد الجوزجاني، تلميذ ابن سينا وتابعه، الذي صاحبه في حله وترحاله، وقد وصف لنا ما قد تعرض له المعلم، أي ابن سينا، من ظلم وويلات من قبل الملوك وسطوة الأمراء، والمصاعب التي لاقاها في مشوار حياته العلمية والعملية، وما قدمه للبشرية من إنجازات ومعارف في مختلف التخصصات يعجز اللسان عن تعدادها، حيث كان نابغة عصره، ولذلك كُنّي بالشيخ الرئيس، أمير الأطباء، بل سيد العلماء.

يقول الجوزجاني: «ما انفك معلمي وصاحبي وقرة عيني طيلة خمسة وعشرين عامًا، أبو علي بن سينا، أفيسين عند الفرنجة، أمير الأطباء الذي بهرت حكمته ومعرفته الجميع، خلفاء ووزراء وأمراء وشحاذين وقادة حرب وشعراء».

اسم ابن سينا طبق الآفاق، فقد بلغ مبلغًا من المعرفة وذاع صيته من سمرقند إلى شيراز، ومن بغداد إلى «أبواب الثنتين والسبعين أمة، ومن فخامة القصور إلى ضواحي طبرستان الوضيعة، وما يزال الصدى يترسل بأخبار عظمته في أرجاء المعمور».

عاش ابن سينا في ظروف صعبة في ظل حروب لا تنتهي بين ملوك وأمراء، بين ساسانيين وبويهيين وزياريين وكاكويين، بين هؤلاء جميعًا يتربص الأتراك بالكل، عابثين بالسلاطين، مستفيدين من تناحرهم على السلطة والجاه والصولجان. «والحق أنه لم يكن وراء كل تلك القلاقل المتوالية سوى شبح محمود الغزنوي».

الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا كان مسكونًا

حميد الملا

بهاجس الكتابة وهو في عمر مبكر، بعد أن درس وعرف أرسطو وأبقراط وبطليموس، كما أنه حفظ القرآن كاملًا عن ظهر قلب، ولما يتعدَّ العاشرة من عمره، وفي السادسة عشرة كان هذا التلميذ معجزة، حيث شرع في شرح طرائق جسّ النبض وعن مظاهره المختلفة، «مضيفًا خمسة على المظاهر التي عددها جالينوس».

لا عجب في نبوغ أبي علي ابن سينا في هذه السن، حيث لا ينام قبل الفجر إلا نادرًا، وإذا نام فليس أكثر من ساعة أو ساعتين، وهذه طبيعته في رحلته إلى المعرفة، فالقراءة والكتابة هما شغله الشاغل، وقد أتاح له معالجة الأمراء والحكام الدخول على

مكتباتهم التي تعجّ بالنفيس من الكتب الفريدة، فأصبحت المكتبات الملكية مشرعة في وجهه، وبين يديه ما يحتاج إليه من كتب.

أنجز أبو علي ابن سينا في حياته القصيرة، التي لم تتعدَّ 57 عامًا، وتوفي في همدان في سنة 428 هجرية، الموافق لسنة 1037 ميلادية، الكثير من المؤلفات في مختلف المجالات، في الطب والفلك والفلسفة، حيث تجلى عطاؤه في الكم الكبير من الإصدارات: عشرون جزءًا من الحاصل والمحصول، وكتاب عن الفلسفة سماه بالعروضية، وقصيدة في المنطق، ومختصر لأقليدس، ومقدمة في الموسيقى، ومقالة في النبض، ومقالة في تفنيد القول بالتنجيم، ورسالة في الزهد، وكتاب في الفلسفة سماه في النفس الناطقة وأحوالها، ورسالة في ماهية الحزن وأسبابه، ورسالة في القضاء والقدر، والأدوية القلبية، وكتاب الأرصاد الكلية، وكتاب المختصر الأوسط في المنطق، وكتاب المبدأ والمعاد، وكتاب الحدود، والكتاب الأول من القانون في الطب، ورسالة النيروزية في معاني الحروف الهجائية، ورسالة في الكيمياء، وقانون الأزياج الفلكية، ومخاطبة الأرواح بعد مفارقتها الأشباح، وقصة سلامان وأبسال، والكتاب الثاني من القانون. ومع كل هذا الكم الهائل من الدراسات والبحوث والتأليفات، توزعت أيامه بين التطبيب والتدريس.

ولهذا لم يعد ابن سينا طبيبًا ذا شهرة واسعة، بل العالم والمفكر، وعلى هذا الأساس أصبح الوزير الأول في عهد الأمير شمس الدولة، أحد أمراء السلالة البويهية، وعُيّن في هذا المنصب الرفيع لحنكته وكياسته الكبيرة ووضوح رؤيته، فانتفع بعلمه كثيرون، من علية القوم وعامتهم، ومن الفقراء، حيث كان يتنقل بين القرى: «لا يطلب مقابل ذلك ذهبًا ولا فضة، تاركًا أجره على الله تعالى».

كل هذه الأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا لم تدفع عنه الأذى، ولم تشفع له، ولا تبعد عنه الشر والعذاب الذي لاقاه من الأمراء، فقد سجن في قلعة فردقان، ولذلك قال كلمته المعبرة عما عاناه: "إننا لسنا سوى عيدان من القش تلهو بنا رياح ولاة النعم، ليس الشعراء أو العلماء مهما كانوا ومن حيثما جاؤوا سوى رافعات يستعملها الحكام كي يعلوا على الوحل، فإذا حققوا بغيتهم تخلوا عنا أو قتلونا، نحن لدى الأمراء بمثابة شهادات على تبرئة الذمة."

هكذا عاش الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا حياته متنقلًا من بلد إلى آخر، منفيًا أو مطاردًا أو مسجونًا، ورغم كل ذلك فالأثر الذي تركه في ذاكرة الكون سيظل راسخًا لا يمحى إلى أبد الآبدين.

د.بروين حبيب

حمدة خميس.. سيدة التحوّلات

هي شاعرة يتشاركها وطنان: وطن الأب البحرين ووطن الأم الإمارات، ويتقاسم قصيدتها أسلوبان: شعر التفعيلة وقصيدة النثر، ويتوزّعها نوعان أدبيان: الشعر والمقالة، وتستأثر باهتمامها قضيتان: شؤون المرأة وهموم السياسة، ويميزها تحولان: «تحوّل القصيدة عندها من الإيقاع والخطاب السياسي إلى قصيدة النثر والتأمل، وتحوّل المرأة فيها من رمز للأم والوطن إلى ذات مستقلة تعبّر عن جسدها ورغبتها واغترابها». تلك هي الشاعرة البحرينية/الإماراتية حمدة خميس التي كانت أول شاعرة أستضيفها في مسيرتي الإعلامية، حدث ذلك سنة ١٩٩٨ في برنامجي شظايا الإبداع في تلفزيون البحرين، وكنت قبل ذلك متأثرة بتجربتها الشعرية من حيث جرأتها في الكتابة وقدرتها على الاختزال.

مايميز قصائد حمدة خميس .. تحوّل المرأة فيها من رمز للأم والوطن إلى ذات مستقلة تعبّر عن جسدها ورغبتها واغترابها

ولم أكن الوحيدة إذ أكاد أزعم أن أغلب شواعر الخليج تأثرن بطريقة ما بشعر حمدة خميس وبكتاباتها النثرية فقد كانت إحدى رائدات الشعر الحديث في البحرين والخليج، بدأت الكتابة في أواخر ستينيات القرن الماضي وشاركت سنة 1969 في تأسيس «أسرة الأدباء والكتاب» في البحرين، وكانت واحدة من امرأتين فقط بين ستة عشر مؤسسًا. كتب الشاعر قاسم حداد وهو من المؤسسين عن ذلك الحدث بطرافة «كانت حمدة خميس الصوت الشعري النسائي الوحيد في حداثتنا المبتدئة، وحمدة كانت أيضاً صاحبة الحدث الاجتماعي الأول في أسرة الأدباء، فقد نشأت بينها وبين الأخ محمد الماجد علاقة حب تكللت بالزواج».

يصعب أن نختزل تجربة شعرية امتدت على مساحة أكثر من نصف قرن في مقال، فهذه الشاعرة القادمة من تخصص العلوم السياسية التي مارست التعليم والكتابة الصحفية عاشت تحولات متعددة في المكان (البحرين والإمارات والعراق ودمشق) وفي التجربة الشعرية ابتداء من الثورية والرومنسية في مرحلة البدايات وخاصة مع ديوانها «اعتذار للطفولة» وصولا إلى رؤيتها الإنسانية الأشمل في أمثال «وقع خفيف» و»سيد السديم». وديوانها الأول لفت الأنظار إليها بقوة كشاعرة كانت صلة وصل بين جيل فدوى طوقان ونازك الملائكة وأجيال الشواعر الخليجيات اللواتي بدأت تجاربهن في الظهور بداية الثمانينيات، ويكفي أن نقف عند قصيدتها «حوار عن الحب والمستحيل» في ديوانها الأول لنستشف أسلوبها الشعري فهي تهيئ القارىء بمفردات سوف تطورها في أعمالها اللاحقة، لكنها مفردات لصيقة بالأنثى سواء عبر فعل الولادة أو العواطف التي تشتعل بها الأنثى أمًّا وطفلة وحبيبة. و»حوار عن الحب والمستحيل» هي مزيج لتجربة حمدة خميس في مرحلة البدايات حيث تختلط الرومانسية بالواقعية، وحيث تستخدم مفردات الحياة الأنثوية الخاصة بالعرس والطفل والحب. والقصيدة تقدم فيها حالة وصفية للمشاعر المتوحدة بالطبيعة، والساردة لضروب الألم، والمتشبثة بالأمل. كما تمثل قصيدتها « قصاصات من دفتر امرأة عاشقة في القرن الرابع عشر» استمرارا لما بدأته في قصيدتها الأولى حيث تزاوج الحب بالسياسة، والرجل بالوطن، والحلم بالكابوس يتضح ذلك بمثال من جملها الشعرية في هذه القصيدة «يغازل وجه حبيبي في شرفات السجون / وغاباتك الموغلات إلى جزر النفي/ آه إن انتظارك يبحر في قامتي خنجرا/ تلك كانت مدائن غدر/ شردتني طويلا».

كما ينبغي التنويه بأن ديوانها الأول ضم مسرحية شعرية بعنوان «فوق رصيف الرفض»، وهو ما يكشف حضور النزعة الدرامية والحوار وتعدد الأصوات منذ بداياتها، ورغبة حمدة خميس وإصرارها على التجدد لم يقف بها عند أسلوب شعري واحد ولا قضية واحدة فعلى المستوى الفني أصبح تميل إلى التكثيف، وتتخفف تدريجيا من المباشرة التي صبغت ديوانها الأول وإن بقيت موضوعات الوطن والثورة والطفولة حاضرة في قصائدها كما في مجموعة «ترانيم» مع ملاحظة اتساع حضور البيئة المحلية ببحرها ونخيلها وأفلاجها وسدرها وأهازيجها. واشتد هذا التكثيف الشعري عندها فتلاشت تدريجيا الموسيقى الوزنية التي تطبع قصيدة التفعيلة لتعوضها بالتكثيف وقوة الصورة والإيحاء والسرد القصير لتصبح مجموعتها مسارات نقلة فنية إلى القصيدة الومضة الميالة إلى التأمل بعيدا عن الصخب السياسي والانفعال.

يتبع

وأصبحت حمدة خميس تعتمد السؤال بدل الأجوبة الجاهزة، فالتساؤل عندها يعد وسيلة البناء التشكيلي، وكلما ازدادت التجربة كلما احتشدت أسئلة الروح القصوى، تقول في إحدى قصائد هذه المرحلة «ما الذي يجلد الروح ؟/ ها هو قلبي مكتنز بالهوى/ ها هو الجسد/ يستريح على جسد مفعم بالجمال/ ما الذي يجلد الروح إذن؟» فلهذا الشعر بعد أعمق من البعد المألوف في قصائدها الأولى المباشرة.

تحاول من خلاله حمدة أن تكتشف ملامح ذاتها عن طريق أسئلة وجودها، ونحن نحس أنها تحمل الأرض والطبيعة والسماء تحت أهدابها وتعددها بحثا عن «الحقيقة» التي تهيم حبًّا بها، وتنشدها، ولكنها دائمة التهرب منها.

إن الكثافة الشعرية التي خلفها الاستفهام لم تقف حائلا بين المتلقي وبين الإحساس العميق بخصب ما يشيع في القصيدة من أجواء فلسفية وصوفية وميتافيزيقية، تلوح الشاعرة من خلالها تائقة إلى معانقة الأشمل والأكمل، وحسب القصيدة أن توحي بهذا الجو، وتلهم هذا الإحساس «هذه الروح يا هذه الروح من أنت؟ أي لغو يصوغك من مبدأ الوهم حتى حضور التوهم؟ لماذا أسميك روحي وأزعم أنك أنت جسد قوقعة وأنت هلام؟» فطبيعة هذه الأسئلة لا تدعو إلى أي إجابة، فقد تكون كما في النص صيحة دهشة تستدرج المكبوت الداخلي ليتفجر دون خوف، واثقا من جدارة القناع الاستفهامي حيث تنتقل من مستوى القول/ الاعتراف إلى مستوى السؤال، الأمر الذي يجعل النص برمّته علامة على وجود نص باطني لا يكون فيه كل ما قيل غير إشارة إلى ما لم يقل.

أهم ما سخرت له حمدة خميس كتاباتها الشعرية والنثرية من خلال مقالاتها قضايا المرأة، ليست الشاعرة نسوية بالمعنى الفلسفي للكلمة كما شاع في أدبيات الغرب، فهي ترفض حتى مصطلح الكتابة النسوية ولكنها مع تأنيث اللغة لتستعيد المرأة حقها في التعبير عن نفسها مختصرة ذلك في قولها «أنا سعيدة جدًا عندما تتجلى أنثاي في كتابتي» لذلك نزعت عنها في نصوص عديدة ثوب المرأة المتغزل بها وارتدت ثوب المتغزِّلة التي تعبّر عن مشاعر الحب والحرمان والمعاناة، فلها مثل ما للرجل الحق في البوح.

لذلك اختارت في طريق مواجهتها للذات والعالم الكتابة للتعبير عن مزاياها وإنسانية حضورها.. وعندما تصدت لهذه المهمة بدأت باكتشاف الواقع المأزوم للمرأة والعبودية المقنعة التي تحاصرها، والتي تسعى إلى تهميشها وإقصائها عن التعبير عن نفسها، وأدركت عن طريق ممارسة الوعي كيف تصبح المرأة كائنا متعددا في تشظيات وعيه بذاته والعالم، ما بين فهمه واستيعابه لمؤثرات العالم واستبطانه لانشغالات الذات، لتحاول بعد ذلك المزج بين هواجس وأحلام ذاتها وخبرات تعاملها مع العالم الخارجي للحكم على الخبرات جميعها.

وتعلن الشاعرة رفضها امتهان الهروب في صورة الضحية المغلوبة على أمرها. ولكن هل جاءت تجربتها مشروعا لتحرير الذات من اليأس، أم شكّل رفضها في لحظة المقاومة يأسا من نوع آخر، أيقظ فيها روحَ المبدعة.

إنها تقول لنا الأسباب التي دفعت بها إلى الكتابة: «لماذا نكتب نحن النساء المنذورات –كالقرابين– للغياب، القابضات على الغبار، المرسومات بفرجار وفق زوايا منحنية! نحن اللاتي صهرن في قوالب أضيق من ساحة الكتابة وأفقر من ثرائها.. لماذا نكتب وفعل الكتابة أصعب من طلق الولادة، طلق الولادة وجع آني أما الكتابة فهي وجع ممتد».

نص حمدة خميس الشعري موسوم دائما بسمات الأنوثة الشعرية في مفرداته ولغته، فلا نجد نصا لها يخلو من استخدام صور ومفردات أنثوية، فمثلا منذ البدايات تقول في قصيدتها «حوار عن الحب والمستحيل: «تأتين كالعرس أو كالولادة/ لك الآن في كل حبة قلب وحبة رمل جنين/ ولا تمنحي غير ثوبك للطفل» فقضايا المرأة الخاصة مثل الأمومة لا تغيب عن نصوصها حتى السياسية منها.

هكذا تبدو حمدة خميس سيدةً للتحولات لا لأنها انتقلت من التفعيلة إلى قصيدة النثر، ومن صخب السياسة إلى هدوء التأمل فحسب، بل لأنها لم تسمح لتجربتها بأن تستقر في قالب واحد. ظلّت القصيدة عندها سفرًا متواصلًا من الوطن إلى الذات، ومن صوت الجماعة إلى أسئلة الروح. وفي جميع هذه التحولات بقي جوهر تجربتها ثابتًا: الجرأة على مواجهة العالم، والقدرة على تحويل الألم إلى معرفة، والكتابة إلى فعل مقاومة. لكل هذا لا نقرأ حمدة خميس بوصفها صوتًا شعريا نسائيًّا رائدًا في الخليج فقط، بل بوصفها شاعرةً وسّعت حدود القصيدة، وأنّثت لغتها من داخلها، وتركت لمن جئن بعدها طريقًا أقلَّ ضيقًا وأكثر حرية. لقد بدأت شاعرةً تعتذر للطفولة، وانتهت شاعرةً لا تعتذر عن أنوثتها ولا عن أسئلتها. ويجدر بنا نحن الذين مشينا في درب عبدته لنا أن نستحضر تجربتها ونضيئ عليها وهي تقترب من عامها الثمانين، ولا نتركها للجحود وهي التي استطابت العزلة حتى كتبت في مديحها «ها أنت وحدك، خرج الجميع/ القليلون في شخوصهم، الكثيرون في الضجيج/ وحدك.. ليس حولك إلّاك / ليس معك غير نفسك تستريح إليك/ غير روحك تسأنس بك».

جلال إبراهيم

عندما تصبح الخفــة عبئًــا

كثيرًا ما نردد عبارة: «أنا متعب من كثرة الأعباء والمسؤوليات». نعتقد دائمًا أن العمل الشاق، والالتزامات العائلية، والضغوط اليومية هي السبب الرئيسي وراء إرهاقنا. ولكن، هل فكرت يومًا أن الراحة المطلقة والفراغ قد يكونان هما السبب الحقيقي في شعورنا بالإرهاق؟

في إحدى مقولاته الشهيرة، يطرح الروائي التشيكي–الفرنسي ميلان كونديرا فكرة عميقة ومفاجئة، حيث يقول: «إن أشدّ ما يرهق الإنسان ليس الأعباء الثقيلة التي يحملها، بل الخفّة التامة، تلك الخفة التي تجعل خطواته بلا أثر، وأيامه تطفو بلا معنى».

قد تبدو الفكرة غريبة للوهلة الأولى. كيف يكون الفراغ وعدم وجود مسؤوليات أمرًا مرهقًا؟ لكن إذا تأملنا في حياتنا اليومية، سنجد أن الإنسان بطبيعته كائن يبحث عن المعنى والأثر. عندما نعمل بجد لتحقيق هدف ما، أو عندما نتحمل مسؤولية إسعاد أسرتنا، فإننا نشعر بالتعب الجسدي، لكننا في المقابل نشعر بالرضا الداخلي والعمق.

أما عندما نعيش حياة «خفيفة» جدًا، بلا أهداف، بلا التزامات، وبلا أي شيء يشغلنا، فإننا نبدأ في الشعور بالضياع. تصبح أيامنا متشابهة، وخطواتنا لا تترك أثرًا في هذا العالم. هذا الشعور بالعبث واللامعنى هو ما يستهلك طاقتنا النفسية والروحية، ويجعلنا نشعر بإرهاق غريب لا يزول بالنوم أو الراحة.

والمفارقة أن الخفة لا تُرهق صاحبها وحده، بل تمتد آثارها إلى من حوله. فالإنسان الذي لا يحمل همًا ولا يتحمل مسؤولية يصبح عبئًا على الآخرين دون أن يدري، إذ يتحول إلى متلق دائم لا يقدم شيئًا. وهكذا تنقلب المعادلة: من يهرب من الأثقال يصبحُ هو نفسه ثقلًا على غيره.

الرسالة التي يوجهها لنا ميلان كونديرا في هذا الاقتباس ليست الدعوة إلى تحميل أنفسنا فوق طاقتنا، بل هي دعوة للتوازن وإيجاد المعنى. نحن بحاجة إلى «ثقل» إيجابي في حياتنا. هذا الثقل يمكن أن يكون: هدفًا نسعى لتحقيقه، أو مهارة جديدة نتعلمها، أو علاقة إنسانية نعتني بها، أو عملًا نبدع فيه.

لذلك، التعب الناتج عن العمل والمسؤولية هو تعب نبيل، لأنه يمنح حياتنا وزنًا وقيمة. أما التعب الناتج عن الفراغ واللامعنى، فهو تعب قاتل للروح. لذا، لا تخف من تحمل المسؤوليات، ولا تهرب من الأعباء التي تمنحك هوية وأثرًا. ابحث عن ذلك «الثقل» الذي يجعلك تشعر أنك تعيش حقًا، لا أنك مجرد عابر سبيل تطفو أيامه بلا معنى.

حين يمنحنا المسرح احتمالا آخر (In Between)

إلى مريم في سنتها الرابعة من الغياب

ثمة عروض نشاهدها من مقاعد المسرح، وعروض أخرى تعثر من دون استئذان على مكان شديد الخصوصية داخلنا، لم يكن العرض المجري «In Between» بالنسبة لي مجرد تجربة بصرية جميلة، فقد اقترب من منطقة أعرفها أكثر مما أحب، منطقة الموت حين لا يعود فكرة فلسفية مجردة وغامقة، وإنما غياب شقي له أسماء ووجوه وذكريات، وحين يصبح السؤال عما يحدث بعد الرحيل أكثر من فضول ميتافيزيقي، لأنه يمس أشخاصا كانوا هنا، وكان وجودهم جزءا من شكل العالم الذي نعرفه.

د. زهراء المنصور

العرض من أداء وتصميم بصري وإخراج Zsofia Berczi وينتمي إلى ما يعرف بـ"مسرح الصورة الحية" الذي يقوم على التكوينات الجسدية في الحركة والايماءة مع بقية عناصر السينوغرافيا، وينطلق العرض من تصور رحلة الروح في المسافة بين الموت والولادة، مستلهما كتاب "Journey of Souls" –كما أشارت مرجعيات تقديم العرض في القاهرة–، ومن هنا يصبح عنوان "In Between" مفتاحا أساسيا للدخول إلى التجربة، فنحن أمام منطقة بينية لا تنتمي تماما إلى الحياة التي انتهت ولا إلى الحياة التي لم تبدأ بعد، مكان معلق لا يخضع لقوانين الزمن والمكان التي نعرفها، تتحول فيه الروح إلى وجود بين حالتين، غادرت إحداهما ولم تصل بعد إلى الأخرى.

لكن العرض –في تقديري– لا يتحدث عن الموت وحده بقدر ما يتحدث عن التجرد، فالإنسان وهو يعبر هذه المسافة يفقد تدريجيا الأشياء التي عرف بها نفسه في حياته مثل الجسد/المكان/الزمن/العلاقات، وربما حتى تلك الـ"أنا" التي اعتقد طويلا أنها ثابتة، ولذلك لا تصبح الحكاية هي الأداة الأساسية، بل الصورة، ولا يحتاج العرض إلى أن يخبرنا بأن شخصا مات وأن روحه انتقلت إلى مكان آخر، بقدر ما يحاول أن يجعلنا نختبر بصريا ذلك الشعور الغامض بالعبور.

وعلى الخشبة لا تظهر هذه الكائنات بوصفها شخصيات تملك أسماء أو ملامح أو حكايات، ترتدي الأجساد السواد وتغطى الرؤوس وتتقارب الهيئات حتى تكاد الفردية تمحى، ثم تومض فوق الصدور دوائر صغيرة من الضوء فلا يعود الجسد كله مرئيا، بل تبقى منه نواة مضيئة في العتمة، وكأن العرض ينتزع الإنسان شيئا فشيئا من العلامات التي كان يعرف بها، ليبقي على أثر حياة لا نعرف إن كان يتشبث بالجسد أم يستعد لمغادرته، فالضوء هنا لا يثبت على معنى واحد، يمكن أن يبدو روحا/ذاكرة/بذرة حياة، لكن قوته في أنه لا يفسر نفسه، وإنما يظل احتمالا بصريا مفتوحا.

ويمتد بين الأجساد خط ضوئي طويل، يلتف حولها مرة، ويصنع موجة أو دائرة مرة أخرى، بينما تتكرر الدائرة في أحجام وصور مختلفة، على الصدر/خلف الجسد/في الإسقاطات التي تملأ الفضاء، كأن العرض يبني قاموسه البصري من شكل يعود إلى نفسه ولا يكشف إن كان دورة موت وولادة أو زمنا لا بداية واضحة له ولا نهاية، ثم تهبط الأقمشة البيضاء من أعلى، تحتضن الأجساد وتحملها، ويتعلق جسد وينقلب رأسه إلى أسفل فتختل معه القوانين البسيطة التي تضبط عالمنا، فلا يعود لفوق وتحت المعنى نفسه، وقد يبدو القماش رحم/كفن أو شرنقة! من غير أن يحسم العرض واحدة من هذه الصور.

وفي الضباب الأزرق يصبح الضوء نفسه مرئيا، تذوب حدود الأجساد وتختفي ملامح المكان، فلا يبقى ديكور يمكن التعرف إليه أو زمن نستطيع الإمساك به، بل جسد/ضوء/حركة/فراغ، تتكون منها الصور أمامنا ثم تنحل، وفي لحظة يحتضن أحد الأجساد كرة برتقالية صغيرة بين يديه، الضوء الذي كان يسكن الصدر أو يمتد في الفراغ صار شيئا يمكن حمله وحمايته، كأن الحياة نفسها تقلصت إلى نواة دافئة يحاول الجسد ألا يفقدها، وهكذا لا تقدم السينوغرافيا مكانا جاهزا تجري فيه الأحداث، وإنما تصنع فيزياء العالم الذي تقترحه، عالما لا تنطبق عليه قوانين الجاذبية والهوية والزمن التي نعرفها، وتحاول أن تمنح شكلا لما لا شكل له، وأن تجعل غير المرئي قابلا للإدراك، ولو للحظات.

وهنا تكمن إحدى مناطق قوة "In Between"، فالفكرة التي يقوم عليها تحمل في داخلها خطر واضح، إذ يمكن بسهولة أن تنزلق إلى الروحانيات الجاهزة، أو أن يتحول الحديث

عن رحلة الروح وما بعد الموت إلى خطاب فضفاض يشرح أكثر مما يخلق، لكن العرض ينجو إلى حد بعيد من هذا الفخ لأنه لا يطالب المتلقي بأن يؤمن بفرضيته، ولا يقدم تصوره للعالم الآخر باعتباره حقيقة يجب التسليم بها، وإنما يستخدمه بوصفه احتمالا يسمح للمسرح ببناء عالمه الخاص.

يمكنني إذن أن أختلف مع الفرضية التي يستند إليها "Journey of Souls"، وأن أرفض فكرة تناسخ الأرواح أو الحياة بين الحيوات، ومع ذلك أستقبل التجربة جماليا، لأن السؤال هنا لا يعود: هل يحدث هذا فعلا بعد الموت؟ بل: ماذا يستطيع المسرح أن يفعل بهذه الفكرة؟ والفرق بين السؤالين هو المسافة التي تفصل الخطاب الوعظي عن الفن، فالمسرح ليس مطالبا بإثبات العالم الخفي، وإنما يستطيع أن يمنحه جسدا مؤقتا، وأن يتيح لنا أن ننظر إلى ما لا يمكن رؤيته في الواقع.

لهذا لم أستطع أن أضع المسافة النقدية المعتادة كاملة بيني وبين العرض، خصوصا في اللحظات التي يقترح فيها بصريا أن من يقترب من الرحيل قد يلتقي، أو يرى، شخصا سبقه إلى الجهة الأخرى، كانت الصورة بسيطة في ظاهرها، لكنها فتحت مساحة شديدة الخصوصية، لأن الفقد يجعل بعض الصور أكبر من حدودها المسرحية، ويمنح الخيال أحيانا قدرة مؤقتة على ترميم ما لا تستطيع الحقيقة ترميمه. لا أعرف إن كانت الأمور تمضي هكذا في الأعلى، لكن المسرح منحني للحظة إمكانية أن أتخيلها كذلك! وربما كانت هذه اللحظة هي التي أعادت ترتيب علاقتي بالعرض كله، فلم أعد أنظر إلى "In Between" باعتباره محاولة لتصوير ما يحدث للروح بعد الموت فقط، وإنما بوصفه مساحة يسأل فيها الأحياء أيضا عن علاقتهم بمن رحلوا، فالموت ينهي حضورا ماديا، لكنه لا يملك بالضرورة القدرة نفسها على إنهاء العلاقة، وثمة أشخاص يغير الغياب شكل وجودهم في حياتنا من دون أن يلغي هذا الوجود تماما.

نظل نستعيد صوتا/جملة/ضحكة/صورة، نعود إلى موقف قديم كأنه حدث بالأمس، نتحدث أحيانا مع من غابوا في سرنا، أو نجد أنفسنا نخبرهم بما حدث بعد رحيلهم، لا لأننا ننكر الموت، وإنما لأن الذاكرة لا تعمل وفقا للقوانين نفسها التي يعمل بها الجسد، وما ينتهي في العالم الخارجي قد يواصل حياته بطريقة أخرى داخلنا، من هنا اتسع العنوان عندي إلى ما هو أبعد من المنطقة المفترضة بين موت وولادة، فالـ"In Between" قد تكون أيضا وصفا لحالتنا نحن الذين نبقى، نحن أيضا نعيش "بين"، بين ما كان وما أصبح، بين ذاكرة انتهى زمنها لكنها لم تنته داخلنا، وبين مستقبل يستمر رغم غياب أشخاص كنا نظن أنهم سيكونون جزءا منه، بين يقيننا بأن شخصا ما لم يعد هنا، وشعور داخلي يرفض أن يتعامل معه باعتباره غير موجود تماما.

وهذا الاتساع في الدلالة هو ما يجعل العرض، في رأيي، قادرا على تجاوز مرجعيته الروحية المباشرة، فرحلة الروح تصبح استعارة أوسع للوجود الإنساني نفسه، فنحن طوال حياتنا تقريبا نعبر من حالة إلى أخرى، بين ما كنا وما سنصير إليه، بين جسد نحمله ووعي نحاول فهمه، بين أشياء نفقدها وأخرى نكتسبها، ولا تبدو الهوية في النهاية نقطة ثابتة بقدر ما تبدو سلسلة متواصلة من العبور، لهذا تبدو الصورة أكثر ملاءمة من الحكاية في بناء العرض، فالحكاية تحتاج عادة إلى بداية ونهاية وعلاقات سببية واضحة، بينما المنطقة التي يقترحها "In Between" تقاوم هذه الحدود، وتسمح للصور بأن تتشكل ثم تتلاشى كما لو أنها ذكريات تمر أمام العين قبل أن تعود إلى مكان لا نستطيع الوصول إليه، حتى إن الأصوات الملتبسة بين الأرواح، والصورة المغبشة، يمكن أن تتجسدا لدى كل متلق في هيئة من فقدهم.

وهنا تحديدا تظهر قيمة الاختيار الجمالي، فالعرض لا يسأل كيف يمكن تمثيل الموت واقعيا، لأن الموت في ذاته لا يقدم مادة بصرية يمكن محاكاتها، وإنما يسأل كيف يمكن تمثيل الإحساس بالعبور – والعبور كلمة سحرية مهدئة–، وهذا التحول من محاكاة الحدث إلى خلق الإحساس به هو الذي يمنح التجربة خصوصيتها، ويجعل المتلقي شريكا في ملء الفراغات بما يحمله هو من أسئلة وذكريات وفقد.

ربما لهذا أيضا لا يتساوى استقبال العرض بين متفرج وآخر، فالصورة التي تمر أمام شخص باعتبارها تكوينا جماليا قد تفتح عند شخص آخر باباً كاملاً من الذاكرة، والمسرح هنا لا يعرف بالضرورة ما الذي سيفعله بكل واحد منا، لكنه يوفر المساحة التي يمكن أن يحدث فيها ذلك، وهذه واحدة من أكثر علاقات المسرح بالجمهور تعقيداً وجمالاً، أن يقدم الصورة نفسها لمئات الأشخاص، بينما يرى كل واحد منهم شيئا مختلفا خلفها.

بالنسبة لي لم يخفف "In Between" مرارة الفقد بمعنى أنه قدم إجابة، فطعم الغياب لا يتغير بهذه السهولة، ولا تستطيع صورة مسرحية، مهما بلغت قوتها، أن تعيد ما أخذته الحياة، لكنه منح الخيال احتمالاً أقل قسوة، ماذا لو لم يكن الرحيل اختفاءً كاملاً؟ ماذا لو كانت هناك مساحة لا نعرفها ولا نستطيع إثباتها؟ لكن يمكننا للحظة أن نتخيل فيها من نحب؟ ليس مطلوباً من المسرح أن يجيب، بل ربما يفقد الكثير من جماله لو فعل، فالإجابة ستغلق المساحة التي يفتحها السؤال، بينما يترك "In Between" الباب مواربا، لا يؤكد ولا ينفي، وإنما يقترح، وفي هذا الاقتراح تحديدا تكمن طمأنينته، لأن الإنسان أمام الفقد لا يحتاج دائما إلى حقيقة جديدة، وقد تكفيه أحيانا إمكانية يستطيع أن يسند إليها خياله لبعض الوقت.

وهكذا خرجت من العرض من دون أن أعرف أكثر مما كنت أعرفه قبل دخولي عن المكان الذي يذهب إليه من نحبهم، لكنني خرجت بشيء من الطمأنينة، لم يملأ العرض حفرة الغياب، ولم يكن مطلوباً منه أن يفعل، ولم يُغيّر طعم الفقد الذي بقي كما هو، لكنه سمح لشيء من الضوء أن يصل إلى منطقة ظلّت معتمة طويلاً، وربما تكون هذه إحدى أجمل وظائف المسرح، ألا يعيد الغائبين، ولا يجيب عن أسئلتنا المستحيلة، وإنما يمنح غير المرئي صورة ويمنح الغياب مكانا، ويمنحنا لبعض الوقت احتمالا نستطيع أن نعيش به.

حين رفعت رأسي: احتفاء بالحب والانتماء

اختارت الكاتبة فوزية مطر حقبة مفصلية في تاريخ وطنها زاخرة بالأحداث، لتكون فضاء لرواياتها (حين رفعت رأسي)، اختيارها لهذه الفترة يضفي على رواياتها سمة ما يعرف برواية الفترة الزمنية، فترة زمنية واضحة الحدود، ما اكتفت الكاتبة أن تتخذ تلك الحقبة إطارا زمنيا لأحداث رواياتها، وأن تستلهم زخم أحداثها لرسم ملامح البحرين وقواها الوطنية في نهوضها لمقاومة المستعمر الإنجليزي، بل اتخذت من رموزها شخصيات لرواياتها.

إن من يقرأ الرواية يشعر أنه يقرأ سير أبطال حقيقين ساهموا في صناعة تاريخ وطنهم الحديث، على الرغم من حرص الكاتبة ألا تثقل روايتها بتكديس الوقائع، فهي لم تكن في صدد كتابة رواية تاريخية، ولا مؤلف عن التاريخ، وما تخلل الرواية من أحداث سياسية لا تخولنا بالضرورة أن نصفها بالرواية التاريخية، وهذا لا ينتقص قيمتها الفنية.

عبدالله العبد المحسن

لا أستبعد أن هذه الرواية قد حجزت لنفسها مكانة بارزة بين ما أنتجه الإبداع السردي المحلي، الذي يوثق تلك الحقبة الهامة في تاريخ الوطن، وفي الوقت ذاته يتعذر فصلها عن الأعمال التي تتماس مع التاريخ، تذكر بأحداثه، وتبرز رموزه.

تكاد أن تكون هذه الرواية توثيقا للحراك الوطني بحكم صلة المؤلفة بما كان يجري، فهي ابنة تلك الحقبة، وربيبة حراكها الوطني، تاريخ عاصرته، وعاشت تفاصيله، فسهل عليها أن تنقل ما شهدت، وان تستوحي منه أحداث رواياتها، وتنتقي منه شخصياتها بيسر، وأن ترسمها بدقة، وكأنها تسجل سير أشخاص عاشت بينهم، واختلطت بهم، واستشفت همومهم وأحلامهم. يكفي أن يكون ذلك وازعا لتناول هذه التيمة سواء في كتابها القيم: (أحمد الشملان سيرة مناضل وتاريخ وطن) الذي أرخت فيه بتوسع للحركة الوطنية، وسيرة رموزها، أو في رواياتها: (حين رفعت رأسي)، التي تحالف فيها الحب والسياسة.

كتبت رواياتها بروح المبدعة الملتزمة بقضية ومبادئ تبنتها، وظلت مخلصة لها وفاعلة فيها، فلا غرابة أن تحتشد الرواية بصور وشواهد عديدة وواضحة للحراك الوطني، وأن تتقن رسم شخصيات رواياتها المنبثقين من ذلك الحراك والمؤثرين فيه، حتى ليخال القارئ، وهو يتوغل في الرواية أنه يطل من شرفة على تاريخ البحرين المعاصر، يقلب صفحات تاريخ مضيء لحقبة مظلمة، ولا يخطئ القارئ إذا ظن أن ما يقرأ هي رواية تاريخية نظرا لحضور التاريخ الكثيف، حيث زخرت الرواية بصور نابضة بالحياة عن ذلك الحراك الوطني الفذ، الذي شارك فيه المستنيرون من أبناء الوطن وبناته، وكان للمرأة فيه دور بارز. ربما هذا الدور الريادي المتفرد والمتميز للمرأة هو ما أغرى وأغوى الكاتبة التي كانت واحدة ممن لهن شأن واضح فيه أن ترصده في رواياتها.

يتبع

امرأة تتخطى عتبة البيت

خروج المرأة البحرينية المبكر يغري أي مبدع ملتزم بتناوله ويستلهمه؟! إنه مثير للدهشة والإعجاب، امرأة مغلوب على أمرها متوارية خلف الجدران مهضومة الحقوق، تعاني من استلاب اجتماعي واقتصادي ومثقلة بالأمية، فجأة تتمرد على واقعها المزري، تتخطى عتبة البيت، تتعلم وتتثقف، تنخرط في النشاط السياسي، لتظهر للعيان بشموخ، وتؤكد أنها قادرة أن تقف بجانب الرجل كتفا لكتف، لا لتطالب بحقوقها المستلبة، بل لتشارك في الحراك الوطني، وتسجل بفخر واعتزاز لأول مرة حضورا لافتا في مسيرة المرأة الخليجية، نعني دور المرأة البحرينية في الحراك الوطني، وهو دور لافت للمرأة في الخليج يفرض الاحترام، وينتزع التقدير، إنها يقظة مبكرة للمرأة في البحرين جعلتها مثلا يقتدى، تجاوزت بها مطالبها الخاصة المتعلقة بشأن المرأة، وأولت الشأن الوطني العام جل اهتمامها، إنها قضية جديرة أن تدرس بعناية لتوثق، وأن تشغل حيزا في الإنتاج الإبداعي بأشكاله المختلفة.

وهذا ما سعت الكاتبة فوزية لإبرازه كمبدعة، وتوثيقه كمؤرخة في روايتها بصدق فني وأمانة دون مبالغة، استعرضت دور المرأة كربة أسرة دور قامت به شيخة على وجه أكمل، وكناشطة في الحراك الوطني مثلته ببراعة حصة، انطلقت من واقع المرأة داخل الأسرة، وتابعتها وهي تشارك الرجل الهم السياسي العام، مما يكسب روايتها أهمية، كمصدر رديف موثوق فيه لمعرفة تلك الحقبة من تاريخ البحرين.

التاريخ والرواية..
تكامل الوقائع مع الخبرات المعاشة

كتابة التاريخ قد يعتريها التزوير بسبب خضوعها لأهواء ومقاصد مؤرخين قد يفتقرون للنزاهة والأمانة، أو خضوعهم للإملآت، لذ ينبغي التعامل بحذر مع ما يقدمه لنا المؤرخون، فالتاريخ في نظر علي بيقوفيتش غير كافٍ وحده لفهم الأمم والشعوب؛ لأنه يقتصر غالباً على سرد أخبار القياصرة والأباطرة والمعارك والانتصارات أو الانكسارات.

ويضيف: (التاريخ يتناول الأحداث، بينما تتناول الرواية الخبرات والتجارب المعاشة)، والفيلسوف الفرنسي جاك رانسيير يقول إنه وجد في روايات بلزاك: تاريخ المجتمع بأكمله يرتسم على الجدران والأثاث والثياب.

ليس غريبا أن يتحول المؤرخ روائيا مادام يتابع ويدرس ويسرد مسيرة الإنسان، هذا ما سيجده القارئ في رواية فوزية الآنفة الذكر، سيجد ما لم يكن فصلا رئيسيا في كتابها الأول (أحمد الشملان: سيرة مناضل وتاريخ وطن). كمؤرخة لحقبة تاريخية، اختارت هذه المرة بدلا من السرد التاريخي السرد

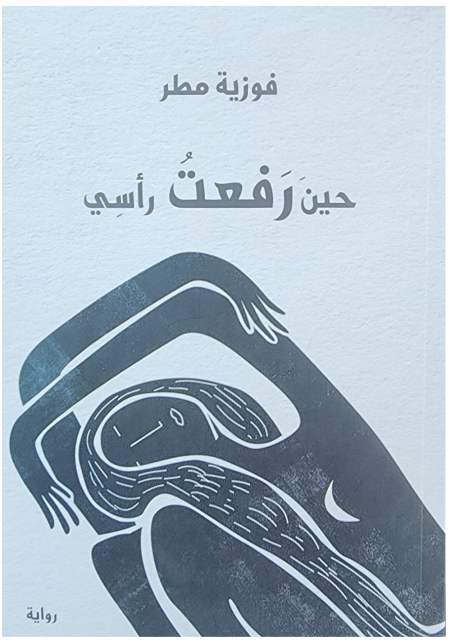

- **حصة ويوسف .. حب يتحدى الفوارق الاجتماعية وسبع سنوات من السجن مع الحلم بالحرية والاستقلال**
- **ترسم الرواية دور المرأة البحرينية في قلب الحراك الوطني عبر ثلاثة أجيال من حصة الجدة إلى شيخة الأم وحصة الحفيدة**

الروائي، ربما تحاشيا للقيود الفظة التي تفرضها تقريرية البحث التاريخي، وربما بهدف التعميم، وربما الكاتبة على علم بأن الرواية لا تتنكر للتاريخ، بل تزيده توثيقا وحضورا.

إنها رواية من واقع الكاتبةُ لصيقة به، تنتح منه دون حاجة لحيل إبداعية، كشحذ الخيال، ولا اللجوء لمراجع من التراجم والسير للبحث عن شخصيات تحملها ما تود إبلاغه من مضامين، فشخصيات روايتها لم تعش في عصر مختلف يصعب استدعاؤهم منه، إنهم من معاصريها، لا يتجاوزون ثلاثة، أو أربعة أجيال على الأكثر، عاشت بينهم في المكان ذاته، يشبهون أشخاصا تعرفهم حق المعرفة، مما سهل عليها رسم شخصيات قوية ومؤثرة مثل حصة الأولى وشيخة

وحصة الثانية، كذلك صياغة أحداث، كأنما تدون سيرتها الذاتية.

استخدمت المادة التي بين يديها، طورتها وشكلتها لدرجة يتعذر العثور على فروق بين شخصيات الرواية وشخصيات تاريخية حقيقية، أما الأفكار والمضمون فهي محصلة وذخيرة من معلومات توافرت لديها بحكم معاصرتها لتلك الأحداث، وقربها منها ومن صانعيها، استندت إليها في إعداد هذا العمل الرائع ووظفتها بفنية، لا نجانب الصواب لو قلنا إن الحركة الوطنية هي التي ألهمتها هذا العمل القيم، وهي أهم مصادرها وأقواها لتشييد بنيان هذه الرواية الفذة، بناء فني سهل ممتنع، شيد بحرفية ومهارة جعلته رفيعا.

من حصة الجدة إلى
شيخة الأم وحصة الحفيدة

قدمت الكاتبة لنا ثلاث شخصيات نسائية من ثلاثة أجيال هي: حصة الجدة، وشيخة الأم، وحصة الحفيدة، شخصيات واقعية في أبعادها وسماتها وميولها، شخصيات مقنعة لا تتعارض مع المنطق الفني، ولا منطق الواقع. اختارتها من محيطها، هي على معرفة تامة بهن، ورأتهن جديرات لأن تحملهن ما تريد في رواية شائقة هي: (حين رفعت رأسي) التي تقصت دور المرأة في الحراك الوطني ووثقته إبداعا، فبدت أحداث ووقائع الرواية تمجد للمرأة الناشطة سياسيا، لتصبح المرأة هي المكون الأساس الذي قام عليه بنيان هذه الرواية.

لنقلب صفحات الرواية، ونقتبس منها بعض ما يؤكد ما ذهبنا إليه، بعد الحرب مباشرة زف محمد ابن أحد تجار اللؤلؤ في المحرق، الذي يمتلك اسطولا بحريا يجوب البحار على حصة ابنة رجل ميسور من أهل المحرق.

وما مرّ عام حتى كان محمد وحصة ينتظران مولودهما الأول، ورزقا طفلة سميت شيخة، تقبلها الجد على مضض، فقد كان يحلم بحفيد يرث الثروة الطائلة، لكنها مشيئة الله، والبنت في البيت خير وبركة، أقنع نفسه بهذا فتقبل الطفلة وأحبها، وما دار حولٌ آخر حتى أنجبت حصة الحفيد المنتظر جاسم.

عاش الطفلان حياة رغدة، حين بلغت حصة التاسعة وجاسم الثامنة رحلت والدتهما بعد ولادة الطفلة الثانية التي تبعت أمها. عانت شيخة وأخوها جاسم من اليتم.

وتضاعف الألم والشقاء خاصة حين تزوج والدهما من نورة، تحولات درامية في حياة شيخة المدللة ابنة التاجر الثري السخي المحب لابنته، فجأة تخرج شيخة من دائرة اهتمام الوالد الذي انصرف لزوجته

يتبع

من التوثيق التاريخي إلى السرد الروائي .. تتحول الذاكرة المعاشة إلى شخصيات وأحداث تستعيد تاريخ النضال الوطني

رواية تستعيد حقبة مفصلية من تاريخ البحرين وتمزج بين الذاكرة الوطنية وتجربة الحب ومقاومة الاستعمار

ومال لها، وترك ابنته عرضة لتعسف زوجته الجديدة نورة، التي حولت الابنة المدللة خادمة ذليلة، ولما تظلمت لوالدها من سوء معاملة زوجته لم يسندها، حلمت شيخة أن تلتحق بالمدرسة مثل صديقاتها وبنات عمها، وكان رد والدها: ليس لدي بنات يذهبن إلى المدرسة، البنات مكانهن البيت.

ولاحقها البؤس والشقاء حتى لما أصبحت زوجة لإبراهيم رجل ثر يكبرها بخمسة وعشرين عاما سبق أن تزوج من ثلاث وانفصل عنهن، لم يجد نفعا رفض جدتها لإبراهيم سيء السمعة، وصفته بأنه يجري وراء متعه.

زفت الشابة إليه دون أن تأخذ قرارها. أرعبها ما فعله بها في الفراش. انتهك جسدها مرات ونام. حلمت أن يحميها من ظلم زوجة أبيها، بعد شهرين سافر الزوج إلى الهند لمتابعة تجارته، كما ادعى، وفي واقع الأمر انصرف لمجونه.

عادت شيخة لخدمة زوجة أبيها. عاد الزوج بعد ثمانية أشهر مسكونا بشهوة طاغية للصبية الفاتنة المنتظرة، بعد ستة أشهر اشتاق لمتع الهند، أبلغ زوجته أنه سيعود للهند لمتابعة عمله سألته: هل ستغيب عني في حملي الأول؟ استغرب أنها تجرأت، ومررت هذا السؤال، الذي عده تطاولا وتجاوزا منها. قدم لها رزمة من النقود قائلا: هذه ستكفيك حتى أعود. وتوعدها: عليك السمع والطاعة.

وغادر بعد أن أنهك جسدها حتى كرهته، ليمارس نزواته في مدينة بونا التي انتقل إليها، ورجع إلى البحرين بعد أن يئست، وقد أصبح له ابن اسمه عبد الرحمن، قد أكمل عامه الأول، ثم عاود ترحاله، لم ينتظر أن تضع حملها الثاني. أنجبت عبد العزيز، أنفقت المال الذي تركه لها، صارت تبيع مدخراتها من الذهب لتنفق على أطفالها، وشجعتها صديقتها لولوة أن تعمل لتنفق على طفليها، فاستنكر والده المنصرف عنها أن تعمل، وهي ابنة رجل ثر، وزوجها طواش لا يقل ثراء.

تحت ضغط العوز احترفت تلاوة القرآن ختمات، وأضافت قراءة المولد، بتشجيع من صديقتها لولوة، وكان ذلك مصدر رزق مولت به احتياجات أسرتها، حين قصّر زوجها ووالدها في الانفاق عليها طيلة غياب الزوج لمدة ثلاث سنوات، شكت للزوج بؤس حالها مع أطفالها، وسعيها لتأمين معيشة أطفالها. غضب من تجاسرها، وأمرها أن تصمت.

أنجبت طفلها الرابع بنتا أسمتها حصة، ضاعفت جهدها خاصة بعد أن أدخلت ابنها الثاني المدرسة. طفح الكيل، كرهت زوجها. ولما عاد بعد غياب دام أربعة أعوام، ولما رأته بعد عدة شهور يستعد للسفر، استشاطت غضبا، وتجرأت على مواجهته: إما تستقر في ديرتك، وتربي عيالك، وإلا طلقني.

شكا لوالدها تمردها، فقرّعها والدها على جرأتها أن تطلب الطلاق. لم تكترث بوعيد والدها، الذي لم يكلف نفسه بالسؤال عن أحوالها وأطفالها طوال أربعة عشر عاما عاشتها في كنفه. أصرت على موقفها، فالطلاق خلاصها الوحيد من زوج تنصل من مسئوليته، تركها مع أطفالها وانصرف لحياته الخاصة، رفض الزوج الطلاق، فلجأت للمحكمة بتشجيع من صديقتها لولوة. وحكم القاضي بتطليقها، استنكر جميع أهلها وأقاربها اقدامها على طلب الطلاق وعدوه منكرا. بعد شهر من الطلاق أنجبت طفلتها الأخيرة موزة.

في سورة غضب من والدها طردها مع أطفالها من البيت. أغمي عليها، أحاط بها أولادها وصديقتها. غادرت الأسرة المنكوبة البيت الكبير في ليلة ماطرة، وعبّر الابن عبد العزيز عن سخطه: هل هذا جد، وذاك أب، تفو على هكذا أهل.

بحثا عن مأوى لجأت لصديقتيها سلامة وسعيدة في ملحق الخدم في بيت أبي علي أحد رجالات المحرق البارزين.

اضطر أولادها الثلاثة للعمل تاركين المدرسة كي يسندوا والدتهم، وهي واصلت قراءة الموالد والختمات. تكاتفت الأسرة وبمساعدة من الأصدقاء بنوا لهم كوخا في رحبة شمال المحرق.

لاحقا استطاعت الأسرة أن تشتري قطعة أرض في المنامة لتشييد منزل عليها، ولتوفير المال اضطر اثنان من أولادها أن يسافرا للعمل في المنطقة الشرقية بالسعودية.

غامر عبد العزيز وسافر إلى الهند، قصد بيت والده في بونا، وسأل البحرينيين المقيمين هناك، فأرشدوه إلى منزل والده، قرع الباب، جال بعينيه في البيت الفخم، نادى الخادم على سيده، جاء وبدلا أن يعانق ابنه قال: ما الذي أتى بك؟ لا مكان عندي لك هنا، عد من حيث أتيت.

شيخة التي صنعت من المحنة سيرة للصمود

شيخة امرأة ذات صبر وجلد تحملت مسئولية الانفاق على أبنائها وحيدة، بلا معين ولا سند، امرأة ابتليت بصنوف الهموم طفولة بائسة، يتم فقدت والدتها في الصغر، ثم زوجة الأب ظالمة، والد غير مكترث لم يسند طفلته اليتيمة، لا تركها عند جدتها، ولا حمامها من ضيم زوجته، ثم ابتلت بزوج فظ كثير الأسفار، طويل الغياب، ولما انفصلت عنه طردها والدها الثري من المنزل الكبير، بدلا أن يحتضنها مع أطفالها، لكن شيخة صمدت، لم تضعف، ولم تنكسر، خصال حميدة جعلت شيخة شخصية ملحمية. شيخة تكاد تكون بطلة رومانسية، فما واجهته وتحملته يضفي عليها طابعا ملحميا خارقا يتجاوز الواقع. شيخة ابنة العز والثراء عانت العوز وتحملت البؤس إلا أنها لم تنكسر، حافظت على قوة شكيمتها، وبذلت ما في وسعها من أجل أن تعيش أسرتها حياة كريمة، وسعت أن ينال أولادها حظا من التعليم المتاح آنذاك، الذي حرمت منه بسبب قصور في رؤية والدها، الذي كان يرى مكان المرأة البيت.

حصة.. من جرح الطفولة إلى الوعي السياسي

الفصل الثاني من الرواية كرس لحصة، التي أخذت دور البطولة من أمها شيخة، حرمت حصة في طفولتها من حنان الأب. رأت والدها لما بلغت الثالثة من عمرها. تقول لم يبق في ذاكرتها سوى ظلال باهتة لذاك الرجل الغريب. وعت أن في بيوت الجيران أب وأم. لاحقت أمها وأخوتها بسؤال: من أبي أنا. وأين هو؟ في السادسة من عمرها لما أعياها انتظار الأب الغائب سألت بإلحاح: متى سيأتي أبي؟ وتولى أخوها عبد العزيز الإجابة بعد أن سئم مراوغة الأم والأخوة قائلا: أخبروها بالحقيقة لم تراوغون؟ اسمعي يا حصة ليس لنا أب، أبونا تركنا وذهب بعيدا، عذّب أمنا وحرمنا من خيره الكثير.

نفرت حصة من والدها، ومن الرجال، مما كابدت أمها بسبب الرجال، فاتخذت قرارا: لن أتزوج مطلقا.

نما في قلب حصة يقين بأن الأمهات والنساء يجسدن الطيبة والحنان والرعاية، حين يفتقر الرجال لكل ذلك. نشأت حصة منغلقة، حملت عزلتها إلى المدرسة، فكانت منطوية بلا صديقات، استعاضت بمكتبة المدرسة، وانغمست في القراءة، ثم شجعتها مدرسة اللغة العربية، التي صارت تقرأ مواضيع انشاء حصة في الصف.

من المدرسة إلى الحركة الوطنية.. حين صار الوعي السياسي طريقا إلى الحب

تروي حصة أنها وعت هي وأخوتها على أحاديث السياسة، وتربوا على الروح الوطنية، كان الحماس

يتبع

السياسي القومي آنذاك يعم الجميع. وفي المدرسة تلقفتها مدرسة اللغة العربية نجوى السورية، التي كانت تطّعم الدرس ببعض المعلومات والمناقشات السياسية، وكانت حصة متميزة في الإجابة على أسئلة المعلمة حول القضايا السياسية، فصارت المعلمة تزودها بكتب للقوميين كساطع الحصري، ثم صارت المعلمة تزور حصة في بيتها، لاحقا اصطحبت زميلة، أو زميلتين، ثم تشكلت خلية. بعد ذلك دعتها المعلمة للانضمام للحركة، فأبدت موافقتها بافتخار أن تنضم لحركة تناهض الإنجليز.

في الصف الرابع أضيفت اللغة الإنجليزية للمنهاج، اعتبرت حصة دراسة اللغة الإنجليزية خيانة للوطن، فأهملتها مما أدى لرسوبها، تفاخرت بكرهها للغة المستعمر. آثرت أن ترسب على أن تتعلم لغة من تكرههم الإنجليز. أنّبها أهلها، وأجبروها أن تدرس اللغة لتنجح في الامتحان، واختير لها أحد معارفهم لتدريسها. كيف هي من تكره الرجال يأتي لها رجل يدرسها، وكان يوسف، كانت مضطربة أن تجلس مع غريب، ترتجف رغم تحفظه ولطفه واحترامه، وهي التي لم تعرف إلا قسوة الرجال وغلظتهم، والدها وجدها مثالان حاضران. مالت إليه، تجاوزت أحاديثهما حدود الدرس، تطرقا للسياسة، التي كانت محور أحاديث الناس حينها. أدهشتها صراحته وشجاعته حين أخبرها أنه انخرط في النشاط السياسي منذ شبابه، وأنه تولى مهمة توعية عمال بابكو بحقوقهم، وحثهم على المطالبة. انجذبت لمعلمها، أحبته وأحبها، حب ليس ثمرة اعجاب عابر، إنما نتيجة لقاءات متكررة وإعجاب بمنظومة أخلاق فاضلة جعلت حصة تغير نظرتها للرجال، ثم جاء الاهتمام بالسياسة المشترك ليعمق هذا الحب. وبدافع حبه لها حذرها، وهما يستهلان الحب ألا تتورط في حبه: أنا سياسي يا حصة حياتي صعبة جدا.

ردت: أنا أيضا سياسية نحن نتقاسم الشغف نفسه.

سألها بعد حين: هل ستقبلين الزواج مني لو تقدمت لطلب يدك.

وجاءه ردها دون تردد: هذه أمنية حياتي.

لكن أمنيتها كادت تجهض بسبب ممانعة أهلها للزواج من يوسف، لأن البون بين الأسرتين شاسع، هي من أسرة ذات نسب وحسب، وهو من أسرة مجهولة الأصل. أصرت أن تتزوج من رأته جديرا بها على الرغم من الفروق الاجتماعية، أبلغت أهلها أنها ستنتحر إن زوجوها غيره. موقفهم لم يتزحزح، خاصة أخوها عبد العزيز المتشدد، موقف أهلها ألهب حبها، انقطع التواصل بين الحبيبين، طالت معاناتها، التحقت بالثانوية، شغلتها معلمتها نجوى بالنشاط السياسي، انخراطها في العمل السياسي منحها السلوان. وانتشلها العصف السياسي الذي هب على البحرين 1965 بعد تسريح عدد كبير من عمال بابكو، حراك شاركت فيه أطياف المجتمع كافة، خرج الجميع في موجات بشرية تهتف ضد الإنجليز، وتأييد جمال.

«سأنتظرك مهما طال الزمان»

تقدم يوسف لخطبتها، وأعلنت خطوبتهما، لكن فرحتها أجهضت باعتقال يوسف، وحكم عليه بالسجن سبع سنوات، ونقل إلى جزيرة جدا. حاول أخوتها اقناعها بأن انتظاره هذه المدة الطويلة خسارة من عمرها.

أعلنت حصة لأهلها: فلتعرفوا جميعا أني متمسكة بيوسف حتى وإن أمضى العمر كله في السجن.

وهذا ما قالته لحبيبها عندما التقته في مركز شرطة البديع، حيث ينقل المعتقلون على قوارب من جدا لمقابلة ذويهم: سأنتظرك مهما طال الزمان.

هذا كان ردها حين قال لها: فلنفك عقد القران وامضي في سبيلك.

من حبها استمد طاقته لتحمل عذابات السجن. يخبرنا يوسف لولا إخلاص حبيبته له لتاه ثباته لاهتزت إرادته.

انتظر الحبيبان مرور سنين السجن الثقال، كلما مر عام تساءل كيف احتمل عذابه! أكمل يوسف سنوات سجنه، فرحت حصة فرحة عمرها، وتزوجا في 23 يوليو اليوم الذي حددته حصة لزواجهما، فقد كان هذا شرطها الوحيد عند عقد القران.

نهاية سعيدة ومتفائلة، لقد تحقق حلمهما الذي عجزت الظروف رغم قسوتها أن تجهضه، التقي الحبيبان. تزوجا وأكمل مسيرة الحب والسياسة.

حين ينتصر الحلم..
حرية يوسف واستقلال الوطن

انتهت الرواية بانتصار الحلم، نال يوسف حريته التي ناضل من أجلها، وحصة ظفرت بحبيبها الذي تجرعت الصبر في انتظار طويل سبع سنين عجاف، كما نال الوطن استقلالا مشرفا، بفضل الحراك الوطني، والتضحيات الجسام، نال استقلا ثمرة نضال، لم يكن هبة من المستعمر، كما نالت بعض مشايخ الخليج وإماراته استقلالها.

رواية حين رفعت رأسي هي تفاعل وتحالف بين الذات المبدعة الواعية والواقع، هي التزام المبدع تجاه القضايا الاجتماعية والإنسانية والوطنية، هي غوص في أرشيف الحراك الوطني تقليب وثائق مصادره الأولية لاستقاء المعلومة الدقيقة لتقدم سيرة حصة ويوسف رمزين للكفاح في مسيرة شعب لنيل الاستقلال والحرية، فأكسب ذلك الرواية أهمية خاصة لطلاع الأجيال الجديدة على تلك الحقبة مجسدة في عمل إبداعي، سطرتها كاتبة مسلحة بوعي وثقافة واختصاص مما أهلها لإحاطة دقيقة بحقبة مفصلية في تاريخ البحرين، وتقديم ذلك في رواية بديعة غير بعيدة عن اختصاصها كدارسة للتاريخ، ولا عن مسيرتها النضالية، واهتماماتها الوطنية، وبدافع من وعيها أن هذه الحقبة يجب التوقف عندها لسبر أغوارها، نظرا لكونها شهدت بداية تشكل الوعي السياسي والنهوض الوطني والقومي، وعاصرت زخم الحراك الوطني والقومي التحرري، وشاركت فيه.

ما غاب عن الرواية.. جاسم وموزة وحياة المعتقلين في جزيرة جدا

أمران توقفت عندهما، تمنيت لو الكاتبة أولتهما مزيدا من الاهتمام: الأول غياب جاسم شقيق شيخة خال حصة عن المشهد. لا أعرف سببا وجيها لأن يكون جاسم ظلا باهتا، بل نسيا، لم يظهر حتى لما كانت أخته في أمس حاجة لمن يسندها، لم يرافقها حين طردها الوالد من منزله، واضطرت أن تخرج ليلا تحت وابل المطر تبحث لها ولأطفالها عن مأوى؟ ولم يبد موقفا تجاه الظلم الذي تعرضت له من زوجها؟ ما سر موقف جاسم من أخته في معاناتها، إنه عصي على الفهم؟ كيف تنصل من واجبه كونه أخا؟ هل ابتلى بطباع والده! أم آثر ألا يوتر علاقته بوالده الغني طمعا في ثروته! لا أعرف سببا لتواريه عن الأنظار. أيضا موزة أخت حصة الصغرى، آخر العنقود، شيمة شيخة لا تسمح أن تهمل أبنتها موزة، لا تهتم بها كاهتمامها بحصة وأخوتها.

الأمر الآخر تمنيت لو الكاتبة أولته اهتماما أكثر، هو حياة يوسف ورفاقه في جزير جدا تحت رحمة الإنجليز، ليتها وظفت بعض ما سجلته في كتابها المهم أحمد الشملان سيرة مناضل وتاريخ وطن، حيث أفردت أكثر من عشر صفحات عن سجن جدا، كان من المفترض أن تتوسع قليلا في الحديث عن تلك المعاناة لتعميم الفائدة، خاصة أن الرواية متوسطة الحجم، وهي أكثر تداولا وإقبالا من كتاب ضخم صفحاته تتجاوز الألف، كان من الأجدى لو أوردت بعض التفاصيل عن حياة المعتقلين، أن تربط مثلا شحوب يوسف، لما رأته حصة في مركز شرطة البديع بالإضراب عن الطعام الذي كرره المعتقلون ثلاث مرات، وأن تعزو حزنه للسجن الانفرادي في زنزانات صماء، يقاوم نزلاؤها الصمت المطبق بالضرب على الجدران لإشاعة بعضا من الإنس، قبل أن يتوصلوا لحفر خرم بسلك لتبادل الأحاديث بينهم.

أظن أن تسائلي مشروع، فمن ترسم هذه اللوحة في نهاية روايتها مثلا: اقتربنا من الشاطئ، ظللنا واقفات نتابع القارب يحمل أحبابنا عائدين إلى جزيرة جدا حتى اختفى، لم تشعر قلوبنا المنفطرة بروعة مشهد الطبيعة على ساحل البديع من حولنا. عبثا سعت زرقة الماء والسماء بجمالهما وهدوئهما لاحتضان قلوبنا الممزقة. كانت الشمس ترجف فوق سطح البحر سائرة ببطء في اتجاه كبد السماء ساكبة ضوءها عله ينير قلوبنا بالصبر والسكينة كانت أشجار البيوت القريبة من الساحل تعج بتغريد العصافير وسطوحها ترسل هديل الحمام .. كل ذلك الجمال لم يفلح في غسل أحزاننا.

دع الظلمة تسبقك

نصوص:
مهدي سلمان

أسلاك شائكة، مرسومة بيد مرتعشة
تهتز كأوتار كمنجة قديمة
لا صوت لها
إلا تردد الدمع.
***

وحين تمسك حبل الليل
يقودك الفضول لتعرف إلى أين يؤدي آخره
لا تخف، امشِ على مهل
دع الظلمة تسبقك
أغمض عينيك إن فزعت
سيختفي كل شيء
وتشعر بيديه الخائرتين، ترتعشان على رقبتك
لا تتوقف، تمسك جيداً
ما العالم في الليل؟ ما الأشياء، ما الأفكار، ما الناس؟
كل هذا سيلتصق بك، مثل طحالب مائية
امض للأبعد،

أنت رمانة الذاكرة
أنت مفتاح الكون
أنت عين العين
خطوة أخرى، لا تضع في الوراء نظرة
أنت تشم الآن أثر الظلام
ومن بعيد، من بعيد جداً
سيلمحك الماشون على حبل الليل
نقطة ضوء صغيرة
سيحسبونها الفجر
وسيتبعونها.
***

وأنا أيضاً أعرف
فمي مفتوح كليل، وعيناي مصباحان ذابلان
كلما اقتربت القيامة تلفتت للوراء
تزعق غربان في شراييني، وريشها يغطي قلبي
أنا كذلك أعرف،
أن توقفي مرتهن بجنّ المخيلة
وأن الصمت جدار أضرب فيه رأسي
لا هو ينهدّ، ولا دمي ينزف.

أعرف، أعرف
لمن هذه الخطى الوئيدة في الظلام
ومتى تحين دقة الساعة القادمة
والضحكة الأخيرة لهم، كيف ستدوّي في أذني
الصدى صيادٌ أطلقه فيعود لي بشباكٍ مقطعة
وأنا أعرف، كالجميع أعرف
أن كلمة واحدة ستفيد في مثل هذه الحالة
لكنها الوحيدة
التي لا أعرف، كيف أقولها.
***

عندما ترتجف يدي
قبل أن يقع القلم منها
قبل ألتفت فزعاً نحو النافذة
التي اصطكت بقوة
أريد أن أهتف
أن أقول – بينما ينهار كل شيء –
يا لكِ من رمشة عين قاسية
أيتها القصيدة.
***

جررت الضوء من قميصه، تشبثت بملابسه
جثوت عند كرسيه العتيق.
عُضني أيها النور الغامض،
أيها اليد الهلامية تمتد في خصلات الزمن،
عضني.
قال: أنيابي من ذهاب، وأنت مجيء لا يكتمل
قالت الريح: ابحث عن سواي،
أنيابي مغروزة الآن في النسيان
لا يقتلعها إلا تفتت صخرة القدر من حولها
قالت المرأة الجميلة: لستُ ذئباً لأعضك
قال الحزن: من يجفف دمعك؟
إن ورقةٌ لحمَك، وأنيابي صفير الصمت
قال الأبد، وهو يمسح نظاراته ويدقق في وجهي: ما الجدوى؟

وابتسمت الإرادة عن فمٍ بلا أسنان، ولم تقل شيئاً...
أما الشعر، فقد نظر نحوي مستغرباً،
وهزّ سبابته في وجهي
يا شعر، بأنياب السؤال الحادة
بأضراس السخرية، بأضراس الجهل النقي
عضني، عضني، وأسل دمي،
أجره في المصب اللانهائي المهدور
ولا تقل تعبت
فأنيابك في رقبتي،
وعيناك في رعشة الخسارة اليائسة.
***

يفكر المنديل –وهو يهتز برتابة في يد ممثلة السينما الكئيبة، إذ تلوّح به لحبيبها، في مشهد سخيف– أن الحياة ستبدأ حينما تهبّ ريح مفاجئة، فتسقطه في البحر.
إننا خلقنا لنمر ببطء على الأشياء، يقول المنديل، خلقنا لكي تدفعنا الريح في الهباء، تتخللنا، أو يثقلنا الماء ويسحبنا للأسفل، خلقنا لنتحلل في الشمس، بعيداً بعيداً في أي مكان مهمل حتى نتمزق في هشاشتنا.
أية عظمة تلك؟! حين تسد الرطوبة مساماتك كمنديل، تمدّ ماءها الخفي في أعضائك كلها، خيطاً خيطاً، فتشعر بالامتلاء، الثقل، الحكمة، التبصّر.
إن حياتنا كمناديل تهدر كل يوم، في الأيدي البشرية، بينما بإمكان صدفة ما أن تغير حياة المنديل الواحد منا، بإمكان صدفة طائشة أن تبعث الحياة في عمرنا البسيط، لنعلق في شجرة مثلاً، أو نسقط في حفرة منسية، لنتكوم بين مجموعة من الحجارة، ونظل نسجّل الصمت الجليل للكون، الهدأة الفارقة، الخلود الهائل للموت.
ينتهي المشهد، فتعيد الممثلة المنديل لحقيبتها، ويختفي صوته، يختفي في رائحة العطر الثمين، ورنين مفاتيح السيارة، وغبار بودرة المكياج، وظلمة الحقيبة التي بلا معنى، الظلمة الكئيبة، كحياة الممثلة الكئيبة، أو حياة المنديل.
****

نحو معدن السماء الكئيب
تدور عيناي الحائرتان،
خرير العتمة الهابط
كصدر نسر باتجاهي،
يخفض بصري

امضغني صداي امضغني
كعشبة الخلود العقيم
أدوس بقدميّ الحافيتين،
ثلج الأبد الزبدي اللزج
في اتجاهك يا بئر اليأس
صوبك أيها العمق الطافح
حاملاً جثة الصرخة الوحيدة
ابنتي المدماة ببحة الخرس

وإذ حدّقت في البئر
وإذ رأيت الأكف المبهوقة
للأحلام القديمة البالية
للصرخات المحمحمة في خفوت
للأعين التي تقاوم الإغماض
ربتت فوق يد الجثة
ومضيت
ثقيلاً عدت
ثقيلاً كالذي تذكر الضوء
مثل الذي دفعة واحدة
رأى.
***

أسمع الاستغاثة
حادة، مضطربة، وكأنها نابٌ في الحديد
بعيدة، وغليظة، أسمعها مثل ضوء مباغت في العتمة
وكلما تبدّت أثقلتني
كلما توضحت، طرحتني في قدمي
كلما تهيأت سحتُ للأسفل
أسمع الاستغاثة
أنا الأعمى في زجاجة القدر العابثة
يطوّح الموج بي
ولن ينقذني غير هذا الصوت البعيد
الاستغاثة المجهولة
تُرى، من أين تجيء؟
***

أكتب على ورقة الصمت العتيقة
كلاماً عتيقاً هو الآخر،
وعندما أمسح الغبار
أجدُ الحروف، تأكل بعضها
والجُملة الباهتة، تسير كقافلة
تنمحي في المجهول.

رغيـف الأغنيات القديمة

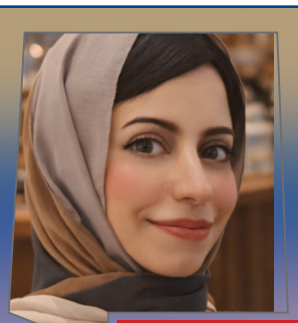

بتول حميد

صباح الخير أيها العالم
ما زلنا بخير
ما زال بوسعنا السخرية والبكاء..
نحصي النجوم قبل أن تهوي النيازك
نعد الغنائم بين كواليس الرهائن
نفتش عن طفولة غضة
تسألنا: كيف انحنينا؟
لمَ تغمس العذارى في زغاريد الحرب فساتينها
البيضاء بالدماء؟
أضاق بنا وهمنا المكرس
في فضيلةِ الصمت..
فتجلى؟
قماشة سوداء على أفواه الموتى
تتدلى؟
ما زلنا بخير
نبني من الركام عرائس للذاكرة
نطعمها رغيف الأغنيات القديمة
ونرمي بخفي الحنين
على جدارننا العقيمة..
أيها العالم المعلق
على حبل العدم
إلى متى نَحْرُسُ ظلنا؟

***

رحلت بياف بصوتها الغافي
تمضغ مأساتها مع نبيذ رخيص
في العتمة.
غطت داليدا
على كومة صورها في مجلات شهيرة
مجيبة على الجميع دون رياء:
«سامحوني.. الحياة لم تعد تحتمل»..
قضى لوركا رمياً بالرصاص
يشد قبضته اليمنى على دماء صدره
ويحمل في اليسرى قصيدة حبّ
نام زفايغ للأبد بعد عناق يائس
سقطت سعاد في مدينة الضباب
مات المليجي متقمصاً الموت
انتحرت شاعرة تشبهني
بمخدةٍ مبتلة على مجازٍ مستحيل

أكل هذا الوجع المجاني
لنبرع في حياكة الهاوية..؟

***

يالطرافة التخيل
وجهك الذي يجيء في اللحظة الأخيرة دائماً..
يعترض حادثة قطار أيامي
يغامر بالقفز في العربة الناجية
ويسافر معي بتذكرة واحدة..

***

كلما تحسستُ يدي
توجستُ من قشعريرة غيابك
كجندي يمشط شعر حبيبته
قبل أن تبتر الحرب أصابعه..

كأنهم لا يغادروا !

(في رحيل جعفر الوداعي)

علي الستراوي

على سرة من الفجر ..
ثقب اذناي دون ابرة موجعة
ابو باسل ..
تغادرنا والدموع بحرٌ ..
وانت محيط يداعب صعبك الموج ..
وينهي جدلك البين ..
لكننا في الهوي تائهون ..
نداعب الحزن ونكسر الوجع
ونترك لليل هديل الحمام ..
لعلنا في السلام طيور حب ..
ونحن كما اسلف العارفون
نعانق ظل نخيل باسقات ..
على عذوقها تدلى الوفاء ..
واستعاد صباه من ابي باسل
ولم تجف الدموع ..
ولم تنبت الأرض دون عناق
ودعتنا في صباح كئيب
وكنت صارية في سفن اجدادنا ..
وكنا على شواطئنا ننتظر بعد الغياب
ونلبس الليل قميص على اجسادنا ..
لعل سترنا يعيدنا لما كان في الهوى ..

صحوة من غياب
ومن فجر طال انتظاره ..
لكنه في الثبات وطن نحبه
ونعلوا به كالشراع ..
أو فنار يقود الضائعين نحو الحياة ..
لك العنفوان ابو باسل ..
ولنا في وداعك الحكايات ..
بدأت على ارضها بذرة ..
وعدت اليها شجر طال واستظل الثبات .

قديس فتنتنا

سوسن دهنيم

عجلاً تجيء كأنك الأجلُ..
انتبهتَ ولم تكن حراً لتنجو
غافلتْك الذكريات وداؤك الأملُ..
البلاد كئيبة مذ صرت حوذيا لدى الإفرنج
كانوا يعبثون بما تبقّى فيك
سيان الذين عرفتهم
شدّوا وإن نزلوا..
هل انكسرتْ خطاك
على طريق كان ملغوما بإبليس الرجيم وصحبه؟
وهناك حيث صلاتك القصوى
تضيء طريق من ضلّوا ومن أفلوا..

***

على أي البلاد حططت
يا قدّيس فتنتنا الأخيرةْ..
جئنا لنغترف البديهة منك
كنا أغبياء كوهْم آباء مضوا
لم نقترف إلا خطاهم في الضياع
تقودنا عين ضريرة..
يا أصلنا مذ أن وعِينا من نكون
يحيطنا قمر مزاجي
على مقياس سيدة جديرةْ..
يا أهلنا في المستحيل وبعده
لم نكترث مما أصاب مجالنا الحيوي
بعدك أيها القدّيس فانعم بالسلام عليك
لا تقلق فقد عدنا إلى ذات الحظيرةْ!!

لروحك الطمأنينة يا موسى

نعيمة السماك

مساء الأربعاء التاسع عشر من أغسطس الماضي، قبيل خلودي إلى النوم. بينما كنت أتصفح الإنستغرام قرأت خبرًا صاعقًا (موسى الموسوي في ذمة الله). ومن فوري هرعت إلى النوم كأنني أود الهرب من وقع الخبر على نفسي. وحينها لم تكن بي طاقة لأكتب شيئًا.

أفقت صباحًا لأتصفح الإنستغرام مجددًا، فإذا بأغلب حسابات الأصدقاء قد امتلأت بصور موسى. وداعًا موسى، استعجلت الرحيل، كلٌ ينزل صورة جمعته به. لماذا فقط حين الفقد نتذكر وندرك كم هي ثمينة تلك اللحظات التي جمعتنا بالأحبة. أكان موسى قبل أن يغادر هذه الحياة يعرف حجم محبة الناس له؟ محبة الناس ليس كل إنسان ينالها فهي ثيمة لا تقدر بثمن.. ولا يحظى بها إلا القليلون. لماذا لا ندرك قيمة الأشياء إلا بعد فقدها؟ ولماذا دائمًا يؤجل التكريم لما بعد الرحيل.

بالرغم من أنه في حالة موسى كتب العديد من الأصدقاء على حساباتهم كلمات تعبر عن دعائهم الصادق له بالشفاء. وبعض أصدقائه كتبوا شعرًا جميلًا في شخصه. ما أن يغادر أحد الأقرباء أو الأصدقاء حتى نتذكر جميع المواقف التي جمعتنا بهم. كل اللحظات كل الذكريات.

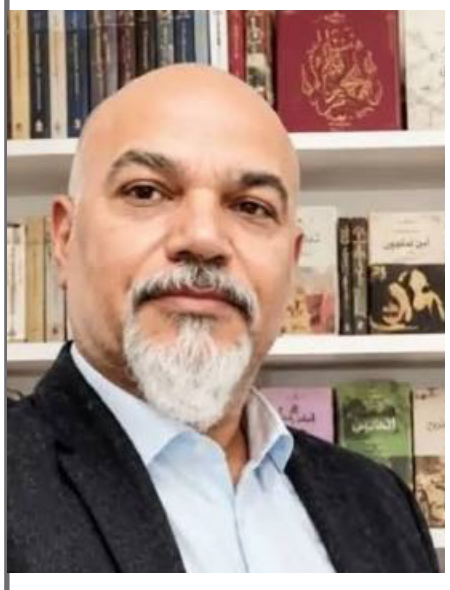

متى عرفت موسى؟ في العام 2005. تجمعت لدي العديد من القصاصات، التي كتبت فيها الكثير من محاولاتي الشعرية.

نصحني الأصدقاء بأن أجمعها وأوثقها في كتاب. قررت الاستماع إلى نصيحتهم. واتخذت القرار الشجاع بالرغم من أنني لم أكن واثقة أو مقتنعة حينها بإصدار كتاب.

عدت إلى قصاصتي ودفاتري القديمة، اخترت العديد من النصوص وألغيت الكثير أيضًا. آنذاك لم تكن لديّ أي خبرة ولا أي تجربة، في إصدار كتاب. حملت النصوص إلى السيد موسى وهو من اختار لي لوحة الغلاف وهكذا أصدرت ديوان طقوس امرأة (شعر). ثم بعدها أصدرت أيام خديجة (قصص). بالتعاون بين دار فراديس ووزارة الإعلام، وأسرة الأدباء والكتاب. وأخيرًا سأحدثكم عن مريم 2017 (قصص) التي صدرت عن دار فراديس أيضاً.

في مكتبته ودار فراديس الواقعة في منطقة عذاري، شاركت وحضرت العديد من فعاليات ملتقى وجود للثقافة والإبداع الذي كانت تقام في مقر فراديس وبالتعاون معها، ومؤسس الملتقى هو الكاتب عزيز الموسوي. ومن أهم تلك الفعاليات التي أتذكرها شهادات إبداعية في التجارب البحرينية التي استضافت العديد من أدباء البحرين المخضرمين.

نعم كان ملتقى وجود متميزًا بأنشطته المختلفة ومحفزًا ومشجعًا للكثير من المبدعين وكذلك العديد من المواهب الشابة. كان نافذة ثقافية مهمة. للأسف لم يستمر. عدا ذلك، فقد كنت أتصل بموسى أو أحدثه بين حين وآخر إذا ما أردت أن أشتري كتابًا من مكتبته.

يرحل الآن وخسارة فقده لا تعوض. رحمك الله يا موسى، لروحك الطمأنينة والسلام، وتبًا لتلك الخسارات التي تباغتنا وتفجع قلوبنا.

التقدمي

التقدمي العدد 223 ـ سبتمبر 2026 السنة 24 SDPA 499

رئيس التحرير: د.حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي. سكرتير التحرير: عيسى الدرازي

المواد التي تحمل أسماء كتابها لا تعبر بالضرورة عن رأي المنبر التقدمي ص. ب: 21461 ت: 17780007 Altaqadomi.bh@gmail.com